رفع محمود العثماني
قيام
الدولة العثمانية
تأليف
أ.د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

قيام الدولة العثمانية

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية
١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م

مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة
مكة المكرمة

قيام الدولة العثمانية

تأليف
أ. د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد... فيسرني أن أقدم هذه الدراسة عن قيام الدولة العثمانية والتي كان لها دور كبير في التاريخ الإسلامي.

وقد بدأت هذه الدراسة بتعريف شامل عن الأتراك واتصالهم بالعالم الإسلامي، وقيام دولتهم الأولى الدولة السلجوقية، ثم نهاية تلك الدولة، وقيام الدولة العثمانية في عام ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، وفتوحات سلاطينها في آسيا الصغرى وشرق ووسط أوروبا والتي توجت بفتح القسطنطينية وتحويلها إلى مدينة إسلامية.

وقد توقفت في هذه الدراسة عند بداية عهد السلطان سليم الأول ٩١٨هـ/ ١٥١٢م، وذلك لأن ضم البلاد العربية للدولة العثمانية، وما تبع ذلك من تنظيمات في جميع المجالات، وتقسيم الدولة العثمانية إلى ولايات كل ولاية قائمة بذاتها يعتبر موضوعاً قائماً بذاته.

أرجو أن أوفق في دراسته في المستقبل القريب إن شاء الله.

كما أرجو الله أنني بهذا العمل قد قدمت للقارىء الكريم خدمة علمية عسى أن ينتفع بها طلاب العلم والباحثون.

وما توفيقي إلا بالله...

عبد اللطيف عبد الله بن دهيش
مكة المكرمة ـ محرم ١٤٠٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين محمد صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فنظراً لأهمية الدراسات المتعلقة بقيام الدول الإسلامية ومنها الدولة العثمانية ذات الفتوحات الكبيرة في بلاد آسيا الصغرى وشرق أوروبا ومنها البلقان ونشر الإسلام بها. وما نشاهده هذه الأيام من عودة كثير من بلدان البلقان إلى حظيرة الإسلام بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وهذا مما جعل الكثير من الدارسين يتطلعون لمعرفة تاريخ تلك المناطق وكيف دخلها الإسلام مما جعل الطبعة الأولى من هذا الكتاب تنفد ولذلك سارعنا إلى إخراج الطبعة الثانية من هذا الكتاب المختصر المفيد نسأل الله أن يجعل فيه الفائدة العلمية وما توفيقنا إلا بالله.

المؤلف

أ. د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

ربيع الأول ١٤١٦

مكة المكرمة

الترك واتصالهم بالدولة الإسلامية

أصلهم ومواطنهم:

قبل أن نبدأ الحديث عن قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها في آسيا الصغرى وشرق أوروبا، لا بد لنا أن نعرف من هم الترك، وما أصلهم، وما موطنهم، وما هي دولتهم الأولى؟ ففي منطقة ما وراء النهر والتي نسميها اليوم (تركستان) والممتدة من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، عاشت قبائل رحل من عشائر الغز[1] الكبرى عرفت بالترك أو الأتراك[2].

---

(١) كانت هذه العشائر من قبيلة (قنق) التركمانية وهي مكونة من ثلاث وعشرين عشيرة عرفت في مجموعها بالأغوز ثم خففت الكلمة إلى الغز. أنظر بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان (القاهرة، مطبعة الانجلو المصرية: ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٧م)، ص ١٠٦.

(٢) صدر الدين علي الحسيني: زيدة التواريخ ـ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية تحقيق الدكتور محمد نور الدين (الطبعة الأولى، بيروت، دار إقرأ: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٢ ـ ٤.

وعبد النعيم محمد حسنين، دولة السلاجقة، (القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٧٥م)،=

ثم أن هذه القبائل أخذت منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في شكل جماعات كبيرة. وتختلف المصادر التاريخية في تحديد أسباب خروج هذه الجماعات من موطنها الأصلي، فالبعض يرى أن ذلك راجع إلى ظروف اقتصادية، فالجدب الشديد وزيادة النسل، جعلت هذه القبائل ترحل عن موطنها الأصلي إلى مناطق أخرى، بحثاً عن العيش الأفضل[1]، والبعض الآخر من تلك المصادر يرى أن ذلك يرجع إلى ظروف سياسية، سببها ضغط قبائل أخرى أكثر منها قوة، هي القبائل المغولية[2] أجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر غير موطنها الأصلي[3]، لتعيش فيه آمنة مستقرة وهذا هو الأرجح في رأينا. ونتيجة لذلك كان عليها أن تتجه غرباً، وقد نزلت بالقرب من شواطىء نهر جيجون، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان

= ص ١٧ ـ ١٨، وكارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي (الطبعة الرابعة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٥م)، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٦.

(١) أحمد بن علي المقريزي: كتاب السلوك، (الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، جـ١، قسم١، ص ٣٠.

(٢) كان الترك أقرب إلى المغول حيث عاشوا في مناطق متقاربة من آسيا الوسطى، وتقول بعض الروايات أنهم من أصل واحد، وكانت التقاليد البدوية، قد زادت من التقارب بينهما، وبالرغم من كل ذلك فإن الحروب كانت مستمرة بين الطرفين، ولم يحاول المغول الاتحاد مع الترك، كما أن المحادثات التي كانت تجري بينهما أحياناً لم تظهر أي تحسن في علاقاتهما، وقد استمرت هذه القطيعة بين المغول والترك فترة طويلة من الزمن، كما أن المغول كانوا لعدة قرون يشكلون خطراً كبيراً على المسلمين، وكانوا سبباً في تدمير بغداد وزوال الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ، كما أنهم حاولوا تدمير الدولة العثمانية وزوالها في معركة أنقره سنة ٨٠٥هـ على يد تيمورلنك. أنظر بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ١٦٣.

(٣) عبد النعيم محمد حسنين: دولة السلاجقة، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م)، ص ١٧ ـ ١٨.

وخراسان، وجرجان[1]، فأصبحوا بذلك بالقرب من الأراضي الإسلامية والتي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة ٢١ هـ/ ٦٤١م[2].

اتصالهم بالعالم الإسلامي:

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سار الجيش الإسلامي في سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م إلى الأرض التي كان ينزلها الترك، وكانت تعرف ببلاد الباب، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمن بن ربيعة بملك الترك شهربراز، الذي طلب من عبد الرحمن الصلح واستعداده للمشاركة مع الجيش الإسلامي في محاربة الأرمن، فأرسله عبد الرحمن إلى القائد العام سراقة بن عمرو، وقد قام شهربراز بمقابلة سراقة فقبل منه ذلك، وكتب للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبره بالأمر، فأجازه على ما فعل، وعلى أثر ذلك جرى الصلح، ولم يقم بين الترك والمسلمين أي قتال، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام فيها[3].

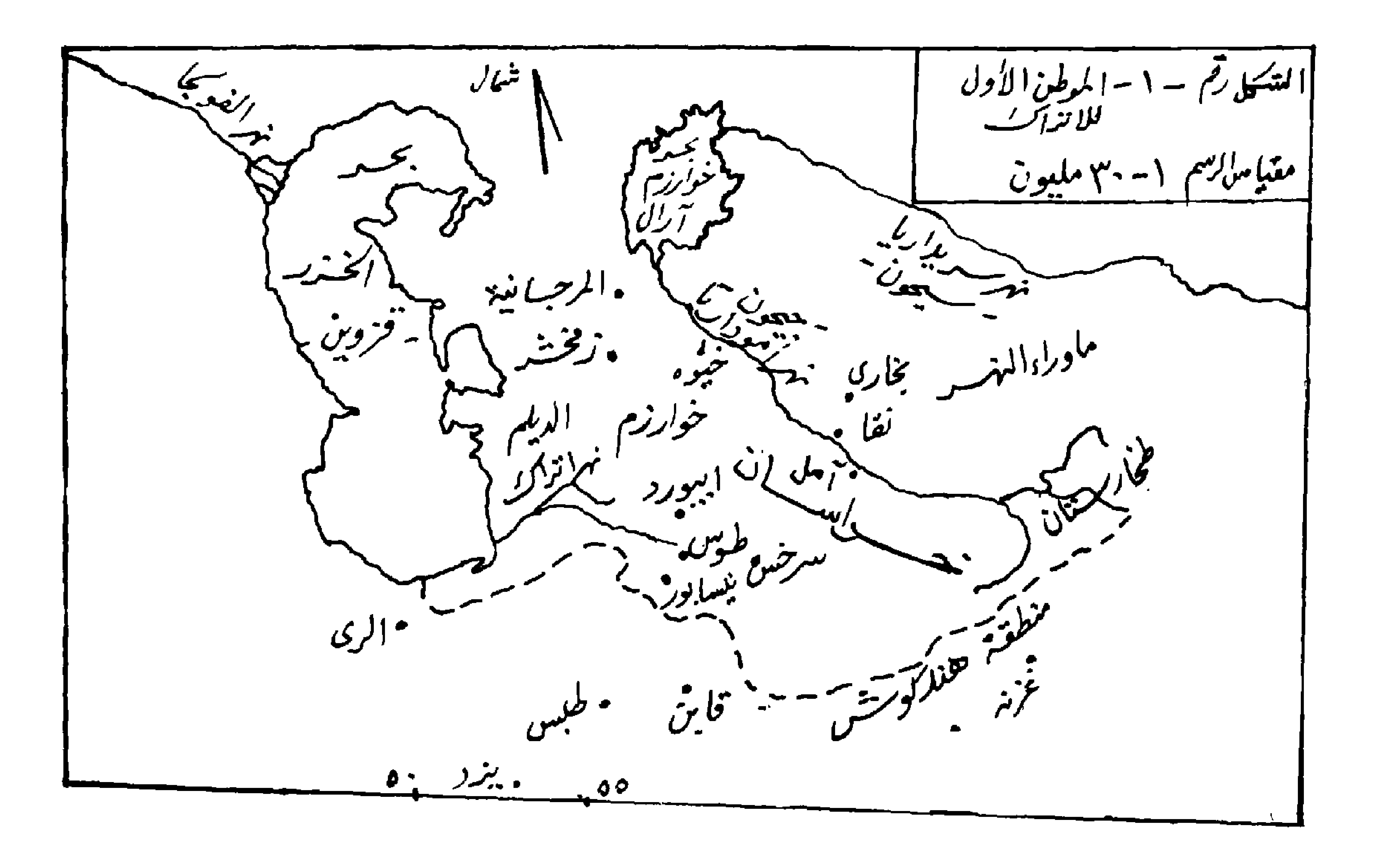
وفي نفس الوقت تقدمت الجيوش الإسلامية تفتح البلدان في شمال شرق بلاد فارس وتنشر الإسلام فيها، بعد أن زالت الدولة الساسانية الفارسية على يد الجيوش الإسلامية، والتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام تقدم الجيوش الإسلامية في تلك الأقاليم. وبزوال ذلك الحاجز ونتيجة للفتوحات الإسلامية، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدان ومنهم

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٨، ص ٢٢.
محمد بن محمد بن النظام: العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة وتحقيق عبد النعيم محمد حسنين وحسين أمين، بغداد، ١٩٧٩م)، ص ١٩ - ٢٣.

(٢) شوقي أبو خليل: نهاوند، (الطبعة الثالثة، دمشق، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ص ٥٥ - ٧٠.

(٣) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك (دمشق، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، جـ ٣، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.


الشكل رقم - ١ - الموطن الأول للأتراك
مقياس الرسم ١ - ٣٠ مليون
شمال
نهر الفولجا
بحر الخزر
قزوين
المرجانية
زمخشر
بحر خوارزم آرال
نهر سيرداريا
نهر سيحون
نهر جيحون
نهر آموداريا
خيوه
خوارزم
الديلم
نهر اترك
ابيورد
آمل
نسا
طوس
سرخس
نيسابور
بخارى
نقشب
ما وراء النهر
طخارستان
منطقة هندكوش
غزنة
الري
طبس
قاين
يزد
٥٠
٥٥

الترك للاتصال بالشعوب الإسلامية، واعتناقهم للإسلام، والانضمام إلى صفوف المجاهدين لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله[1].

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة ٣١ هـ، ونزلوا بلاد ما وراء النهر، فدخل الكثير من الترك في دين الإسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشتركين في الجهاد لنشر الدين الإسلامي القويم[2]

واستمر تقدم الجيوش الإسلامية في تلك المناطق فتم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان، ومنها سارت الجيوش الإسلامية إلى سمرقند. وما أن أطل عهد الدولة العباسية حتى أصبحت بلاد ما وراء النهر جميعها تسعد بالحكم الإسلامي وتعيش حضارة إسلامية عظيمة[3].

ومع ظهور الدولة العباسية ازداد عدد الأتراك في بلاط الخلفاء والأمراء، وأخذوا يشاركون في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة، فكان منهم الجند والقادة والكتاب. وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

وفي عهد الخليفة المعتصم[4] العباسي ازداد نفوذهم حيث اتخذ منهم حرسه الخاص، وأسند إليهم الكثير من مناصب الدولة القيادية، وأصبحوا بذلك يشاركون في تصريف شؤون الدولة، ذلك لأن المعتصم اعتمد على

---

(١) محمد أنيس: الدوله العثمانية والشرق العربي، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ب.ت.)، ص ١٢ ـ ١٣.
وكارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

(٢) أحمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٩.

(٣) محمود شاكر: خراسان، (الطبعة الأولى، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص ٢٠ ـ ٣٥.

(٤) كانت مدة حكمه من ١٩ رجب ٢١٨هـ الموافق ١٠ أغسطس عام ٨٣٣م إلى ١٨ ربيع الأول عام ٢٢٧هـ الموافق ٤ فبراير عام ٨٤١م.

العنصر التركي لمواجهة النفوذ الفارسي، الذي كان له اليد المطلقة في الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون[1].

وقد أدى اعتماد المعتصم على العنصر التركي إلى حالة سخط شديد بين الناس والجند، فخشي المعتصم على نفسه وأسس مدينة جديدة هي (سامراء)، تبعد عن بغداد حوالى ١٢٥ كم وقد سكنها هو وأنصاره وجنده. وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التاريخ في الظهور في أدوار هامة على مسرح التاريخ الإسلامي حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية.

---

(١) فترة حكمه ٢٥ محرم عام ١٩٨هـ الموافق ٥ سبتمبر عام ٨١٣م حتى ١٩ رجب عام ٢١٨هـ الموافق ١٠ أغسطس عام ٨٣٣م.

قيام الدولة السلجوقية

تعتبر الدولة السلجوقية الدولة التركية الأولى التي أسسها الأتراك للوقوف أمام أعداء الأمة الإسلامية، ففي عام ٣٧٥هـ الموافق ٩٨٥م استطاعت مجموعة من عشائر الغز التركية أن تتحد تحت زعامة أحد شيوخها، وهو سلجوق بن دقاق أو (بقاق)[١]، وتؤسس إمارة إسلامية صغيرة في بلاد بخارى، أخذت تنمو تدريجياً[٢]، وذلك راجع إلى أن سلجوق كان يرغب في نشر الإسلام في تلك المناطق، وتأسيس قوة إسلامية تستطيع أن تقف في وجه أعداء الإسلام، من القبائل غير المسلمة في تلك المناطق. وتكون على

---

(١) وصل إلينا هذا الإسم بصيغ مختلفة، منها: دقماق، ويقاق (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٩، ص ١٦٢، وتقاق (غريغور يوس بن العبري: تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٨م)، جـ ١، ص ٢٩٢. ودقاق: (زين الدين عمر بن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي (القاهرة. ب.ت))، جـ ١، ص ٤٨١.

(٢) أحمد بن علي المقريزي، السلوك جـ ١، قسم ١، ص ٣١، وصدر الدين علي الحسيني، زبدة التواريخ ـ أخبار الأمراء والملوك السلاجقة، تحقيق محمد نور الدين (الطبعة الأولى، بيروت، دار إقرأ: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٢٣ ـ ٢٥.
ومحمد بن علي الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم الشواربي وآخرون، (الطبعة الأولى، القاهرة: ١٩٦٠م)، ص ١٤٧.

علاقة طيبة مع الدول الإسلامية المجاورة[1]، وخاصة الدولة العباسية.

وبعد وفاته خلفه ابنه أرسلان يساعده أخوته موسى، وينس، وميكائيل الذين أخذوا في التوسع المستمر على حساب المناطق المجاورة لهم في بخارى وسمرقند ثم في خراسان، بعد أن حصلوا على موافقة بذلك من السلطان محمود الغزنوي زعيم الدولة الغزنوية، فأسسوا في تلك المناطق قوة عظيمة تركزت بصورة كبيرة في منطقة خراسان، وكان ذلك في بداية القرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي[2].

ويعتبر المؤرخون انتقال السلاجقة إلى خراسان من أهم عوامل نجاحهم في إقامة دولتهم وتدعيم مركزهم، فلقد تهيأت لهم هناك الظروف التي مكنتهم من تأسيس دولة قوية. كما أن السلاجقة أدركوا في تلك الفترة قوة محمود الغزنوي فلم يشأوا التورط معه في حروب غير متكافئة، إلا أن سعى السلاجقة في تدعيم مركزهم وبناء قوتهم العسكرية قد أدخلهم في حروب متعددة مع الغزنويين[3].

وكانت بداية ذلك الصراع أن سكان المدن في خراسان قد ساءهم وجود السلاجقة في بلادهم، وذلك لاعتدائهم على المزارع والمدن، فطلبوا من السلطان محمود الغزنوي إخراج السلاجقة من خراسان، فنشبت الحرب بين سكان المدن الخراسانية والسلاجقة[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٩، ص ٤٥٤ ـ ٤٧٤.

(٢) محمد بن علي الراوندي: راحة الصدور، ص ١٥٣.
محمد بن محمد بن النظام: العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة وتحقيق: عبد النعيم محمد حسنين وحسين أمين، ص ٢٦ ـ ٣٥.

(٣) إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٨٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٩، ص ٢٢.
رشيد عبدالله الحميلي: إمارة الموصل في العصر السلجوقي، ص ٣٨.

(٤) حمد الله المستوفى: تاريخ كزيده، جـ ١، (بومباي، نشر براون: ١٩١٠م)، ص ٤٣٤.

وقد دافع السلاجقة دفاعاً عظيماً عن مراكزهم حتى حققوا انتصارات كبيرة على الخراسانيين. وعلى أثر ذلك سار السلطان محمود الغزنوي في عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م لمحاربتهم، وتمكن من هزيمتهم[1]. لكنه لم يستطع القضاء على مراكز قوتهم وتفتيت تجمعاتهم.

وفي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م توفي السلطان محمود الغزنوي، فتولى قيادة الدولة من بعده ابنه مسعود، الذي لم يكن مثل أبيه في الحزم والقوة. فانتهز السلاجقة هذه الفرصة فأخذوا في تقوية مراكزهم وتحصيناتهم والتوسع على حساب الدولة الغزنوية[2]، وتمكنوا في سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م من التقدم إلى مدينة نيسابور، فدخلوا في صراع شديد مع حاكمها حتى انتصروا عليه، بالرغم من مساندة جيش السلطان مسعود الغزنوي له. ثم طلبوا من السلطان مسعود التفاوض وأرسلوا إليه رسالة بذلك. وقد جرت المفاوضات بين الطرفين، وانتهت بعقد الصلح بين الفئات المتحاربة، والسماح للسلاجقة بالاستقرار في أجزاء كبيرة من خراسان وذلك في عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م. وكان السلطان مسعود مضطراً إلى عقد ذلك الصلح، نظراً لأنه كان يواجه تحركات واضطرابات شديدة على الحدود الهندية، وبذلك حقق السلاجقة نصراً جديداً وهو الاعتراف بهم كقوة رئيسية في المنطقة[3].

وبعد فترة توفي أرسلان ثم أعقبه أخوانه لكنهم لم يستمروا طويلاً في

---

(١) أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك الكرديزي: زين الأخبار (طبع برلين، ب،ت)، ص ٦٩ - ٧١؛ وحسين أمين. تاريخ العراق في العصر السلجوقي، (بغداد، مطبعة الإرشاد: ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، ص ٤٨ - ٥٠

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٣٨٥.

(٣) محمد بن حسين البيهقي: تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، (القاهرة، مطبعة الانجلو، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، ص ٥٢٨، محمد بن علي الراوندي، راحة الصدور، ص ١٥٧.
محمد بن النظام: العراضة في الحكاية السلجوقية، ص ٣٠ - ٣٣.

السلطة حيث انتهى الأمر بتولي طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق زعامة السلاجقة. كما تولى شقيقه جفري بك داود قيادة الجيش السلجوقي وولاية العهد. وفي عهد طغرلبك عظم أمر السلاجقة واتسعت إمارتهم، وذلك على حساب الدولة الغزنوية في بلاد خراسان[1]. فلقد طلبا من السلطان مسعود بن محمود الغزنوي أن يمنحهما بعض الأراضي المجاورة لنيسابور، ليقيما فيها قوة مشتركة ضد أعداء الدولتين، لكن السلطان مسعود رفض ذلك الطلب، وأخذ في محاربة السلاجقة لإخراجهم نهائياً من خراسان، فنشبت الحرب بين الطرفين، وانتهت بفوز السلاجقة وعقد الصلح بين القوتين، والذي بموجبه حصل السلاجقة على مطالبهم كاملة[2].

لكن بالرغم من ذلك الصلح فإن الحرب بين الغزنويين والسلاجقة عادت من جديد وانتهت بدخول طغرلبك مدينة نيسابور. ثم احتفل في أواخر عام ٤٢٩هـ الموافق ١٠٣٧م بتتويج طغرلبك زعيماً للسلاجقة الأتراك، وإعلان قيام الدولة السلجوقية، نسبة إلى جده سلجوق بن دقاق مؤسس الإمارة السلجوقية[3]. وقد قام البيهقي بتقديم وصف كامل لهذا الحدث التاريخي الهام، ووصف لنا دخول طغرلبك نيسابور، وما أعقب ذلك من مراسيم لتتويج طغرلبك زعامة الدولة السلجوقية الجديدة، والتي تمت في حديقة الشادياخ، والخطب التي قيلت في هذه المناسبة التاريخية. وعلى أثر ذلك لقب طغرلبك[4] نفسه بلقب السلطان العظيم ركن الدنيا والدين[5]، وبايعه

(١) أحمد كمال: السلاجقة في التاريخ، ص ٢٦.

(٢) محمد البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٥١٨ - ٥٢٩.

(٣) عماد الدين إسماعيل أبو الفدا: المختصر في تاريخ النشر، (القاهرة: ١٣٢٥هـ)، ص ١٦٣.

(٤) البيهقي، المصدر السابق: ص ٦٩٢ - ٦٦٤. أنظر أيضاً: عبد النعيم محمد حسنين: سلاجقة إيران والعراق، (الطبعة الثانية، القاهرة: ؛ ١٣٨٠هـ)، ص ٢٧ - ٢٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٩، ص ٤٧٥ - ٤٨٧.

الناس سلطاناً على الدولة الجديدة، فأمر بضرب العملة باسمه، كما طلب ذكر اسمه في الخطبة على المنابر في جميع المناطق الخاضعة له[1].

ولم يكن طغرلبك هو الابن الأكبر، فقد كان أخوه جغرى بك داود أكبر منه سناً إلا أن طغرلبك كان يتمتع بشخصية قوية وذكاء حاد وشجاعة فائقة، كما كان متديناً ورعاً عادلاً، مما جعله أجدر من أخيه بهذا المنصب، ولذلك وجد تأييداً كبيراً ومناصرة عظيمة من شعبه، وقد أعد جيشاً قوياً، وسعى لتوحيد كلمة السلاجقة الأتراك في دولة قوية[2].

وكان قيام دولة السلاجقة في بخارى وسمرقند وخراسان حدثاً جديداً في تاريخ العالم الإسلامي، كما وأن إعلان قيام دولة السلاجقة لم يمر دون معارضة ومقاومة شديدين من سلاطين الدولة الغزنوية. فلقد جن جنون السلطان مسعود بن محمود الغزنوي، حينما علم باعتلاء طغرلبك عرش الدولة السلجوقية الجديدة في عاصمتها العظيمة نيسابور، وتلقيبه بالسلطان طغرلبك العظيم ركن الدنيا والدين[3]، فصمم على التوجه بنفسه إلى خراسان للقضاء على طغرلبك، وإزالة الدولة السلجوقية. واستمرت المعارك بين طغرلبك زعيم الدولة السلجوقية ومسعود الغزنوي زعيم الدولة الغزنوية مدة تقرب من أربعة أعوام، حتى انتهت بهزيمة مسعود الغزنوي في معركة دندانقان في شهر رمضان عام ٤٣١هـ الموافق ١٠٣٩م، وغنم السلاجقة غنائم كبيرة بعد هذه المعارك[4]. ولقد كان لهذا النصر الذي أحرزه طغرلبك

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، جـ٣، ص ١١٣.

(٢) أحمد الساداتي: تاريخ الدولة الإسلامية بآسيا وحضارتها، ص ١٨٦.

(٣) الفتح بن علي البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق زبدة النصرة ونخبة العصرة (ليدن: ١٨٨٩م)، ص ٦ ـ ٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٣٠هـ و٤٣١هـ.
أنظر أيضاً: محمد بن حسين البيهقي؛ تاريخ البيهقي، ص ٦٨٥ ـ ٦٩٥: (وهو شاهد عيان للمعركة وصفها وصفاً دقيقاً)؛

على مسعود الغزنوي أثره الكبير في تعزيز موقفه، فدفعه ذلك إلى مواصلة تحركاته لضم مناطق جديدة لدولته، ونجح في توسيع نطاق دولته وأنزل الهزائم الكبيرة على أعدائه[1].

ورغبة من طغرلبك في أن تكسب دولته الجديدة الصفة الشرعية، فإنه سعى للحصول على اعتراف الخليفة العباسي بدولته، فقام في عام ٤٣٢هـ الموافق ١٠٤٠م بالكتابة للخليفة القائم بأمر الله[2]، وأرسل رسوله بتلك الرسالة والتي يطلب فيها الاعتراف به زعيماً على المناطق الواقعة تحت سلطته، ويعلن الولاء للخليفة العباسي القائم بأمر الله، واتباع تعاليم الإسلام، والجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام. فما كان من الخليفة القائم بأمر الله إلا أن أعلن اعتراف الدولة العباسية بدولة السلاجقة. وبذلك زادت مكانته وعلا شأنه بين الدول وازدادت تدريجياً قوة السلاجقة، فقاموا بدور هام في توجيه سير الأحداث في المنطقة[3].

ونتيجة لذلك دخل السلاجقة في حروب متعددة مع الدول المجاورة كان النصر فيها في الغالب لجيش طغرلنك. وقد ساعدهم على ذلك تنازع

= وعماد الدين إسماعيل أبو الفدا، المختصر من تاريخ البشر، ص١٦٣.
رشيد الحميلي: امارة الموصل في العصر السلجوقي، ص٤٣.
وعبد الحي الحنبلي: شذرات الذهب، ص ٤١٥.
وصدر الدين علي الحسيني: زبدة التواريخ أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣٥ ـ ٣٧.
محمد بن علي الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ص١٦٢ ـ ١٦٩.

(١) رشيد عبدالله الحميلي: إمارة الموصل في العصر السلجوقي، ص ٤٣.

(٢) هو أبو جعفر عبدالله بن عبد القادر، وعرف بالقائم بأمر الله، ولد في النصف الثاني من شهر ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وثلثمائة للهجرة، وعهد إليه والده بولاية العهد قبل وفاته، وقد تولى الخلافة عام ٤٢٢هـ، واستمر في الحكم حتى عام ٤٦٧هـ، وكان ورعاً عالماً عادلاً حليماً صادقاً، اهتم بالعلم والعلماء، كما أنه كان كثير الصدقة والعطف على الفقراء.

(٣) محمد بن علي الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ص١٦٢ ـ ١٦٦.

ولاة الأمر في الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة والخلافة الأموية في قرطبة فيما بينهم وتدخل دول أجنبية في شؤونهم. فلقد استولى طغرلبك في محرم عام ٤٤٣هـ الموافق ١٠٥٠م على أصفهان ثم في عام٤٤٦هـ الموافق١٠٥٤م احتل تبريز عاصمة أذربيجان وضمها إلى دولته[1].

وفي أوائل عام ٤٤٨هـ الموافق ١٠٥٦م استطاع طغرلبك أن يقضي على النفوذ البويهي الذي كان مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي، وأن يدخل بغداد حيث استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية، وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان ركن الدين طغرلبك. كما أصدر الخليفة العباسي أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرلبك على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة. ومنذ ذلك الوقت حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر في بغداد، وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم[2].

وتوطيداً للروابط بين الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وبين زعيم الدولة السلجوقية طغرلبك، فإن الخليفة تزوج من ابنة جفرى بك الأخ الأكبر لطغرلبك، وذلك في عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، ثم في شعبان عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م تزوج طغرلبك من ابنه الخليفة العباسي القائم بأمر الله. لكن طغرلبك لم يعش طويلاً بعد ذلك، حيث أنه توفي في ليلة الجمعة لليوم الثامن من شهر رمضان عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٢م، وكان عمره إذ ذاك حوالى

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث عام ٤٤١هـ، ٤٤٢، ٤٤٦هـ.

أنظر أيضاً محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، (بيروت، دار الجيل، ١٣٩٧هـ)، ص ٢٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٤٨ إلى ٤٥٠هـ.

ومحمد الخضري: الدولة العباسية، (الطبعة العاشرة، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ب.ت)، ص ٤١٣ ـ ٤١٧.

سبعين عاما، بعد ان تمت على يده الغلبة للسلاجقة في مناطق خراسان وإيران وشمال وشرق العراق[1].

وقد تولى الب ارسلان زمام السلطة في البلاد بعد وفاة عمه طغرلبك، وكانت قد حدثت بعض المنازعات حول تولي السلطة في البلاد، لكن الب ارسلان استطاع أن يتغلب عليها. وكان الب ارسلان ـ كعمه طغرلبك قائداً ماهراً مقداماً، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته. كما كان يرغب في السيطرة على الدول المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، لأن هذا سوف يكسب حروب السلاجقة صبغة دينية، ويعطيها طابع الجهاد في سبيل الله، لنصرة دينه، ونشره في تلك الديار، حتى ترتفع راية الإسلام خفاقة على أوسع منطقة من أراضي الدولة البيزنطية[2].

وعلى ضوء هذه السياسة، فإننا نجده يقضي سبع سنوات، يتفقد خلالها أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأي توسع خارجي. وعندما اطمئن على استتباب الأمن، ورسوخ حكم السلاجقة في جميع الأقاليم الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة. فأعد جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق. فكان طبيعياً أن يحدث احتكاك بين السلاجقة والروم، فقد أغضبت فتوحات ألب ارسلان دومانوس ديوجينس امبراطور الروم، فصمم على القيام بحركة مضادة للدفاع عن

---

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٥.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٥١ ـ ٥٢.

امبراطوريته. ودخلت قواته في مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة (ملازكرد) في عام ٤٦٤هـ الموافق أغسطس عام ١٠٧٠م والتي انتصرت فيها قوات السلاجقة على قوات الامبراطور دومانوس[١] وأسر دومانوس ثم سيق إلى ألب ارسلان في ذلة فأمر بجلده، ثم سجنه ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتداه قومه بمبلغ كبير من المال، وانتهى الأمر بعقد معاهدة مدتها خمسون عاماً بين الطرفين، يتعهد الروم فيها بدفع جزية سنوية للسلاجقة مع اطلاق جميع الأسرى من المسلمين[٢].

لقد كان نصر ألب ارسلان بجيشه الذي لم يتجاوز خمسة عشر ألف محارب على جيش الامبراطور دومانوس الذي بلغ مائتي ألف، حدثاً كبيراً ونقطة تحول في التاريخ الإسلامي، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم في معظم المناطق في آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت تعتمد عليها الامبراطورية البيزنطية. وهذا ساعد تدريجياً للقضاء على الدولة البيزنطية بكاملها فيما بعد على يد الأتراك العثمانيين. لكن ألب ارسلان لم يعش حتى بجني ثمار نصره العظيم، ويواصل فتوحاته في المناطق المسيحية، ويحقق أهدافه البعيدة، التي كان يأمل في تحقيقها، فقد قتل على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي وذلك في اليوم العاشر من ربيع الأول عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٢م[٣] ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه ملكشاة[٤].

قام ملكشاه بمواصلة تنفيذ نفس السياسة التي سار عليها والده وساعده

---

(١) محمد الخضري: الدولة العباسية، ص ٤٢٥،

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٥٧ - ٦٠.

(٣) The Cambridge History of Islam, (The Central Islamic Lands, Cambridge: 1970) Vol. I, PP. 232 - 261.

(٤) محمد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق (بيروت، دار الافاق الجديدة، ب.ت.)، ص ٥٠.

في ذلك وزيره الشهير نظام الملك صاحب كتاب (سياسة نامه). كما أنه قام بتوسعة رقعة دولته، فبعد أن وطد دعائم حكمه قام بفتوحات عظيمة في آسيا الصغرى حتى بلغ أجزاءها الغربية، واتخذ من قونية مركزاً له. كما أن قواته سارت في فتوحاتها في اتجاهات متعددة، مما جعل مملكته تمتد من شبه القارة الهندية شرقاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً. وبذلك انضوت تحت لوائه أقاليم ما وراء النهر وإيران وآسيا الصغرى والعراق والشام، وقضى على النفوذ الفاطمي هناك. ثم أنه قوى صلته بالخليفة العباسي المقتدى بأمر الله[1] وقام بزيارته في بغداد في ذي الحجة سنة ٤٧٩هـ الموافق ١٠٨٦م، وأقام في بغداد حتى صفر عام ٤٨٠هـ. وقد أكرمه الخليفة المقتدى بأمر الله وأغدق عليه ألقاب التعظيم، وأقره على ملك دولته الدولة السلجوقية[2]. لكن ملكشاه تعرض في الفترة الأخيرة من حكمه لخطر داخلي وهو قوة الإسماعيلية النزارية، التي كانت سبباً في خلق الاضطرابات الداخلية، وتفكك الإقليم. وقد حاول القضاء على ذلك الخطر الداخلي، إلا أن المنية وافته قبل أن يتحقق له ما يريد، وذلك في منتصف شهر شوال من عام ٤٨٥هـ ١٠٩٢م[3].

نهاية الدولة السلجوقية الكبرى:

كان للسلطان ملكشاه عند وفاته أربعة أبناء هم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود، والذي عرف فيما بعد بناصر الدين محمود، طفلاً فبايعوه على تولي السلطة لأن أمه تركان خاتون، كانت ذات شأن كبير أيام ملكشاه. وقد استمر حكمه حوالى العامين من ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م وإلى عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، حيث توفي هو وأمه. ثم جاء من بعده ركن الدين أبو

---

(١) بعد وفاة الخليفة العباسي القائم بأمر الله في ليلة الخميس الثالث عشر من شهر شعبان سنة ٤٦٧هـ، تولى من بعده الخليفة المقتدى بأمر الله وقد استمر في الخلافة حتى سنة ٤٨٧ هـ.

(٢) محمد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٥٧ ـ ٨٠.

(٣) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٥ ـ ٢٦.

المظفر بركيارق بن ملكشاه، واستمر حكمه حتى عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م، ثم تلاه ركن الدين ملكشاه الثاني، وفي نفس العام تولى السلطة غياث الدين أبو شجاع محمد، واستمر حكمه حتى عام ٥١١هـ ١١٢٨م وكان آخر حكام الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر والتي كانت لها السيطرة على خراسان وإيران والعراق. وقد انقرضت دولتهم عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م وذلك على يد شاهنات خوارزم[١]. وبسقوط الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر انفرط عقد السلاجقة، وتمزقت وحدتهم، وضعفت قوتهم، حتى أصبح السلاجقة شيعاً وأحزاباً ومعسكرات متباينة، تتصارع فيما بينها، حول الظفر بالعرش، وانقسمت على ضوء ذلك الدولة السلجوقية العظمى إلى عدة دول وإمارات صغيرة. ولم تكن هذه الدولة والإمارات الصغيرة تخضع لحكم سلطان واحد كما كان الحال في عهد كل من السلطان طغرلبك الأول والسلطان ألب ارسلان والسلطان ملكشاه وأسلافهم. بل كان كل جزء من أجزاء الدولة السلجوقية مستقلاً تحت قيادة منفصلة، لا يوجد بينها أي تعاون يذكر[٢].

ونتيجة لذلك خرجت الدولة الخوارزمية فيما وراء النهر وهي تلك الدولة التي صمدت طويلاً أمام الغارات المغولية وقد خرجت معها إمارات سلجوقية في شمال العراق والشام عرفت بالأتابكيات، وأثناء ذلك ظهرت سلطنة سلاجقة الروم،وهي السلطنة التي وقفت لفترة طويلة أمام التحركات الصليبية من جانب الامبراطورية البيزنطية، حتى جعلتها تتراجع وتنحصر في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى. أما سلطنة سلاجقة الروم فقد اتخذت من قونية عاصمة لها، كما أنها تعرضت بعد ذلك لغارات مغولية عديدة وعنيفة أفقدتها معظم مناطقها.

وقد استمر هذا التفكك والانهيار بين أجزاء دولة سلاجقة الروم حتى

---

(١) محمد الاصبهاني: تاريخ دولة آل سِلجوق، ص ٨١ـ ١٥٤.

(٢) Fisher S.N., The Middle East, (London: 1971) PP. 161 - 180;
Tamara, T. Rice., The Seljuks in Asia Minor, (New York: 1961). P. 45.

مطلع القرن الثامن الهجري (الثالث عشر الميلادي)، حين ظهر على مسرح التاريخ عنصر تركي جديد، كان له دور كبير في إعادة بناء دولة إسلامية قوية عرفت بالدولة العثمانية.

ومما لا شك فيه أن للسلاجقة الفضل في توحيد جزء كبير من العالم الإسلامي لفترة من الزمن، استمرت أكثر من قرنين ونصف، ولكن أهمها الفترة الواقعة بين مطلع القرن الخامس ومطلع القرن السادس للهجرة. وقد حاول السلاجقة خلال تلك الفترة النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإدارياً ونشر الأمن والاستقرار فيها. كما أنهم أيضاً وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الامبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد الخطر المغولي إلى حد كبير. ثم إنهم رفعوا من شأن المذهب السني في تلك المناطق، بعد أن كان مهدداً ببناء دول شيعية مثل الدولة البويهية.

قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها
في اسيا الصغرى وشرق أوروبا
«٦٨٧ ـ ٩٢٢هـ/ ١٢٨٨ ـ ١٥١٦م»

سبق وأن تحدثنا عن الأتراك وأصلهم ونشأتهم ثم كيف ظهروا على مسرح التاريخ؟ وما آلت إليه دولتهم ـ ثم أننا نشاهد الآن ظهورهم من جديد بزعامة عثمان بن أرطغول بن سليمان بن فياالب رئيس قبيلة قاتبي التركية، الذي كان له الفضل بعد الله في بناء دولة إسلامية قوية، عرفت بالدولة العثمانية[1] نسبة إليه. وقد استطاعت هذه الدولة إعادة توحيد الأمة الإسلامية والدفاع عن الإسلام عدة قرون بعد أن أصابها التمزق على يد الجيوش

---

(١) يطلق الكثير من الكتاب على هذه الدولة اسم الامبراطورية العثمانية بدلاً من الدولة العثمانية، ومعروف أن لفظ امبراطورية يطلق على بعض الدول الكبرى التي يحكمها امبراطور وتكون له السلطة المدنية بينما يكون للبابا السلطة الدينية، وهذا التقسيم لا ينطبق على الدول الإسلامية أو حكامها، ومن الخطأ أن نطلق على الدولة العثمانية اسم الامبراطورية العثمانية. كما أنه من الخطأ أن نطلق على الفتوحات العثمانية في وسط وغرب آسيا الصغرى وشرق أوروبا حركة اتساع الدولة العثمانية أو الرغبة في توسيع نطاقها على حساب المناطق المجاورة، بل إن تلك الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ما هي إلا امتداد لحركة الفتح الإسلامي السابقة لقيام الدولة العثمانية، ورغبة من سلاطين الدولة العثمانية في نشر الإسلام في تلك المناطق التي كانت قاعدة للحملات الصليبية ضد الأمة الإسلامية وقد توجت تلك الفتوحات بفتح القسطنطينية.

المغولية. وينتسب آل عثمان إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في حوالى عام ٦١٧هـ الموافق ١٢٢٠م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة اخلاط(١)، ثم بعد وفاته في عام ٦٢٨هـ الموافق ١٢٣٠م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالى مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس(٢). وفي تلك الفترة حدثت حروب بين السلطان علاء الدين السلجوقي زعيم دولة سلاجقة الروم، وبين أعدائه في المناطق المجاورة(٣)، فهب أرطغرل بجماعته لمساندة جيش علاء الدين حتى تحقق له النصر العظيم على أعدائه، وتم فتح قلعة كوتاهية عام ٦٨٥هـ وضمها للدولة السلجوقية(٤)، فما كان من علاء الدين إلا أن قام بمكافأة أرطغرل فاقطعه منطقة واسعة، تقع إلى الغرب من دولته، محاذية لبلاد الروم، وذلك ليستقر فيها ارطغرل وجماعته، وهي منطقة استراتيجية هامة، تقع في المربع الذي يحده من الجنوب الشرقي يكي شهر(٥)، ومن الجنوب الغربي جبل المبوسي،

---

(١) أخلاط: مدينة في شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وآن في هضبة ارمينيا.

(٢) Paul Wittek, The Rice of the Ottoman Empire, (London: 1938) P. 7 - 11; Gibbons: The Foundation of the Ottoman Empire, P. 22; Cambridge Mediveal History, Vol. 4, P. 655.

(٣) تذكر بعض الروايات أن الجيش المعادي كان من الروم، بينما تذكر روايات أخرى أن الجيش كان من المغول، والأكيد أن الجيش من الروم بدليل أن علاء الدين السلجوقي أقطع ارطغرل وجماعته أراضي محاذية لبلاد الروم حتى يكون حاجزاً منيعاً بين الدولة السلجوقية وبين بلاد الروم.

(٤) أحمد القرماني: تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي (الطبعة الأولى، دمشق، دار البصائر: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ١٠.

(٥) يكي شهر: تلفظ الكاف أحياناً نوناً فتصبح يني شهر، ويكتبها الأتراك الآن بهذا الإسم (Yenisehir) أي البلدة الجديدة، وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة بورصه (BURSA).

ومن الشمال الشرقي تقابل نهري كاراسو وسانجاريوس، ومن الشمال الغربي بروسه[1]، حتى تم ضمها فيما بعد للدولة العثمانية، وقد كان ذلك بداية استقرار لهذه الجماعة، وتكوين إمارة عثمانية صغيرة ما لبثت أن أصبحت دولة ذات شأن عظيم[2].

السلطان عثمان وتأسيسه للدولة العثمانية ٦٨٧ ـ ٧٢٦هـ/ ١٢٨٨ ـ ١٣٢٧م:

تولى عثمان[3] رئاسة عشيرته بعد وفاة والده ارطغرل عام ٦٨٧هـ الموافق ١٢٨٨م، ولبث مصافياً للسلطان علاء الدين، وساعده في افتتاح جملة مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم. وسمح له بسك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحت سلطته[4]، وبعد وفاة علاء الدين السلجوقي في عام ٦٩٩هـ الموافق ١٣٠٠م استقل عثمان بمقاطعته استقلالاً تاماً، ثم أخذ في بناء دولة له على حساب الدولة

---

(١) معروفة اليوم باسم (BURSA)، وهي مدينة تقع على الطرف الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، مشهورة بمياهها المعدنية وهوائها العليل وجمال مناظرها الطبيعية، وقد ظلت بروسه عاصمة للدولة العثمانية منذ افتتاحها سنة ٧١٧هـ الموافق ١٣١٧م وحتى سنة ٧٧٣هـ الموافق ١٣٦١م، حيث قام السلطان مراد الأول بنقل عاصمته من بروسه إلى أدرنه في الطرف الشرقي من أوروبا بعد أن افتتحها. وبعد فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني (الفاتح) سنة ٨٥٧ هـ الموافق ١٤٥٣م نقل العاصمة من أدرنه إلى القسطنطينية واستبدل اسمها باسم إسلام بول أو اسطنبول أي مدينة الإسلام.

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ١٧.
وعلي حسونه: الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية، (الطبعة الأولى، دمشق، المكتب الإسلامي: ١٤٠٠هـ)، ص ٧ ـ ٩.

(٣) ولد السلطان عثمان بن ارطغرل عام ٦٥٦هـ وشب على البسالة والشجاعة.

(٤) يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، (الطبعة الثالثة، دمشق، دار البصائر: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٢٩.

السلجوقية، كما فتح مدناً كبيرة في المناطق الخاضعة للامبراطورية البيزنطية، حتى أنه جمع تحت سلطته معظم الأراضي التي كانت خاضعة لعلاء الدين مع مناطق كبيرة من الإمبراطورية البيزنطية. وكانت رغبته هي توطيد دعائم دولته في آسيا الصغرى وخاصة في منطقتي (قرة صو وسقاريه). وقد ساعده على هذا التحرك والفتح الكبير تأييد سكان تلك المناطق له، ورغبتهم في قيام دولة إسلامية تخلف الدولة السلجوقية لتعيد لهم وحدتهم ومكانتهم، وتقف سداً منيعاً أمام الدول المعادية للإسلام والمسلمين. وقد اتخذ عثمان من مدينة يكى شهر عاصمة لدولته الجديدة[1]، وقد نقل لها بعد ذلك عاصمة دولته، وبنى فيها جامعاً ومدرسة وتكية لإيواء الفقراء والغرباء[2].

ثم أخذ يفتح الحصون والبلدان، ففتح في سنة ٧٠٧هـ حصن كته، وحصن لفكه، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار. وفي سنة ٧١٢هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طراقلو، وحصن تكرربيكارى وغيرها. وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسه في عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات، ولم يكن فتح بروسه من الأمور السهلة بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته، حيث حدثت بينه وبين قائد حاميتها أفرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان. ثم أنه اعتنق الإسلام وأعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد[3]. وقد احتذى حذوه كثيراً من القادة البيزنطيين حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم، كذلك توافد عليه الآلاف من المجاهدين من مختلف المناطق المجاورة له، ومن القبائل التركية طالبين

---

(١) محمد فؤاد كويرسلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة من التركية وقدم له أحمد السعيد سليمان (القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ب.ت)، ص ٩ ـ ١٢.

(٢) أحمد القرماني: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٢.

(٣) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، (الطبعة الأولى، بيروت، دار النفائس: ١٤٠١هـ)، ص ١١٦ ـ ١٢٠.

منه المشاركة في الجهاد. وكان عثمان قد طلب من أمراء الروم في منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور هي الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وبذلك أسلم بعضهم، وانضم إليه البعض الآخر وقبلوا دفع الجزية. أما ما عداهم فقد شن عليهم عثمان حرباً شعواء لا هوادة فيها فانتصر عليهم، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته. وقد اتخذ عثمان نفس الراية التي كانت شعار السلاجقة والمؤلفة من الهلال والنجمة، وفي ذلك الأثناء وبينما كانت قوات عثمان تتقدم في بلاد الروم وافاه الأجل المحتوم وذلك في ٢١ رمضان عام ٧٢٦هـ الموافق ١٣٢٧م[1].

السلطان أورخان: ٧٢٦ - ٧٦١هـ/ ١٣٢٧ - ١٣٦٠م:

بعد وفاة عثمان خلفه في الحكم ابنه أورخان[2]، الذي اتبع سياسة أبيه في الحكم وفي الفتوحات. وفي عام ٧٢٧هـ الموافق ١٣٢٧م سقطت في يده نيقوميديا، وتقع في شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة اسطنبول وهي مدينة أزميت (IZMIT) الحالية، فأنشأ بها أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داود القيصري، أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا في مصر.

وفي عام ٧٢٩هـ الموافق ١٣٢٩م قام بضم مدينة نيقية (أو ازنيق)[3]، والتي كانت في مركز العاصمة الثانية للدولة البيزنطية. وجعل أكبر أولاده وهو سليمان حاكماً عليها، كما أنه أسس بها عدة مدارس وتكايا للفقراء والمعوزين[4]. وواصل فتوحاته فافتتح حصون قيون حصاري وانتكميد وغيرها

---

(١) Marriott, J.A.R. The Eastern Question (A Historical Study in European Diplomacy, 4th edit., Oxferd: 1969) pp. 41 - 43.

(٢) كان مولده في سنة ٦٧٨هـ.

(٣) تعرف الآن بمدينة اسنك (IZNIK).

(٤) Barkhausen, J. Maenner und Maechte am Basporus, Abdul - Hamid und seine Zeit, (Barlin: 1938) P.47.

أنظر أيضاً، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، ص ١٢٤.

من الحصون والمدن التي كانت مراكز للتسلط الصليبي ضد المسلمين[1].

على أننا يجب أن نلاحظ أن الفتوحات العثمانية في عهد أورخان لم تكن على حساب الأرض البيزنطية فحسب، بل امتدت إلى الإمارات التركية الصغيرة المنتشرة في شرق وجنوب آسيا الصغرى، والتي قام أغلبها على أنقاض سلطنة قونية السلجوقية، واستطاع العثمانيون القضاء على أمارة قرمان التركية، وتوجيه ضربات قاسية إلى الإمارات التركية في آسيا الصغرى[2].

وبالنسبة لأوروبا فلقد أدى الخلاف على السلطة في الدولة البيزنطية ـ تلك الظاهرة التي كانت سائدة بين أمراء المناطق في الدولة البيزنطية في تلك الفترة والتي أصبحت فيما بعد الطابع البارز في السنين الأخيرة للدولة البيزنطية ـ إلى طلب أحد الأمراء الخارجين عن طاعة الامبراطورية وهو جون الخامس مساعدة العثمانيين له ضد أعدائه. وقد انتهز السلطان أورخان هذه الفرصة وأعلن استجابته لذلك الطلب وأعد قوة عثمانية كبيرة عبرت ولأول مرة في التاريخ العثماني من آسيا الصغرى إلى شرق أوروبا، وكان ذلك في عام ٧٤٧هـ الموافق ١٣٤٧م. وقد حققت القوات العثمانية انتصارات كبيرة، لكنها لم تستقر في أوروبا بل عادت إلى آسيا الصغرى.

وقد أعطت هذه الحملة فكرة كبيرة للقادة العثمانيين عن طبيعة المنطقة ومدى قوتها، فعمل هؤلاء القادة الخطط من أجل نشر الإسلام في أوروبا.

وفي عام ٧٥٤هـ الموافق ١٣٥٣م، عبرت القوات العثمانية إلى أوروبا، بقيادة سليمان بن أورخان، لا من أجل المساعدة وإنما من أجل نشر الإسلام في تلك المناطق، وتمكنت هذه القوات في عام ٧٥٧هـ الموافق ١٣٥٦م من فتح بعض المناطق الكبيرة من شرق أوروبا وأهمها منطقة

---

(١) أحمد القرماني: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٣.

(٢) عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية (بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٣م)، ص ٣٤.

غاليبولي (Gallipoli)، فكـانـت أول منطقة تفتح على يـد الجيش العثماني في شرق أوروبا، وتـم تحصينها لتكون أول مركز ثابت للعثمانيين في شبهه جزيـرة تراقيا، بل وفي شرق أوروبا. وقد استمـر الجيش العثماني ـ والـذي بلغ عدد رجـاله في تلك الحملة أكثـر من ثلاثين ألف مقـاتل فـي فتـوحاتـه في شـرق أوروبا حتى احتل السهل الأوروبي المطل على بحر مرمره، ثم واصل الجيش العثماني فتوحاته حتى استولى على (ابسالا ورودستو)[1].

وباحتلال العثمانيين لغاليـبولي، أخذ التحـالف الأوروبي المسيحي في التحرك ضد الدولة العثمانية، وارتفعت نداءات البابا لوقف الفتوحات العثمانية والعمل على توحيد الكنيستين الأرثوذوكسية في القسطنطينية والكـاثوليكيـة في روما. وقد أسفرت تلك التحركـات الأوروبية إلى إرسـال حملتين ضد الـدولة العثمـانية كـانت الأولى عام ٧٤٣هـ المـوافق ١٣٤٤م، وأرسلت من البندقيـة التي كانت لها دافع خاص وهو البقاء على مركزها التجاري في المنطقة. وقد سـاعـد البنـادقـه في حملتهم هــذه منـظمــة الاسبتـاريــة[2]، فحققت بعض الانتصـارات البسيطة على القـوات العثمـانيـة، لكن القـوات العثمـانيـة ظلت صامـدة. أما الحملة الثانية فقد كانت بقيادة ملك قبرص المسيحي ولـم تحقق أي انتصار يذكر.

وبذلك فإن عهد أورخان شهد أول استقـرار إسلامي في شـرق أوروبا. وهنا نشاهد مدى اتساع الدولة العثمانية في عهد أورخان، ودخولهـا إلى شرق

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور/ إحسان حقي، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) الاسبتارية: هم فرسان القـديـس حنا، تـأسست جمعيتهم لإسعاف المـرضى من زوار القدس ثم صاروا مؤسسة عسكريـة تمثل طـائفة من الفـرسان الصليبيين الـذين كانـوا يسكنون موانىء الشام يافا وأنطاكية، وكانـوا شوكـة في ظهور المسلمين في الـوقائـع الصليبيـة، استوطنـوا رودس بعد استيـلائهم عليهـا في سنـة ١٣١٠م واستعـانت بهم البـابويـة في الحروب الصليبيـة ضد المسلمين. ابن عبـد الـظاهـر: تشـريف الأيـام والعصور في تاريخ الملك المنصور قلاوون، ص ٣٤.

القارة الأوروبية لتكون بداية فتح عظيم للإسلام يتحقق على يد السلطان محمد الفاتح، الذي استطاع فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية، وذلك في عام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م. وفي عام ٧٥٩هـ الموافق ١٣٥٩م، توفي سليمان بن أورخان بسبب سقوطه من على ظهر جواده وصارت ولاية العهد من بعده لأخيه مراد بن أورخان[1].

وقد حفل عهد أورخان بتنظيمات عديدة، فلقد وضع نظاماً خاصاً للجيش، فقسمه إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للانفاق منها على الجيش فقط[2]، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها.

كما أنه أنشأ جيشاً آخر عرف بالانكشارية[3]، كونه من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة وانتصاراتها الكبيرة في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام، ثم انضمامهم إلى صفوف المجاهدين في سبيل نشر الإسلام، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتم تربيتهم تربية إسلامية فكرياً وحربياً يعينون في مراكز الجيش المختلفة. وقد غرس السلطان أورخان في هذه الجموع حب الجهاد حتى أصبحت فكرة الجهاد عندهم فكرة إسلامية. فكان الجندي الواحد منهم يذهب إلى ساحة القتال إما غازياً أو شهيداً فكان هذا الجيش

---

(١) محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٢) محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية (القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر: ١٩٧٦م)، ص ١٧؛ وكارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البلعلبكي، (بيروت، دار العلم للملايين: ١٩٦٥م)، ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

(٣) أصل الكلمة هو (بني تشاري) وتكتب باللغة التركية (يكيجاري) أي الجيش الجديد أو القوة الجديدة ثم حرفت الكلمة في اللغة العربية فصارت (انكشاري).

بتدريبه ونشأته نواة للجيش العثماني[1].

كما أن أورخان في عام ٧٢٨هـ الموافق ١٣٢٨م أمر بضرب العملة باسمه رمزاً لاستقلاله وسيادته على دولته الجديدة، وكانت هذه العملة من الذهب والفضة وتحمل على وجهها الأول عبارة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهذا يؤكد الهوية الإسلامية للدولة العثمانية حيث جعلت من كلمة التوحيد شعاراً لها، وعلى الوجه الثاني للعملة كتب عبارة (أورخان خلد الله ملكة) وهي مماثلة للنقود التي ضربها السلاجقة أثناء حكمهم السابق[2]. ولم يكتب على هذه العملة زمان ومكان ضربها، ولكن اسم أورخان يدل على أنها ضربت في عهده وفي عاصمته بروسه. وقد حلت هذه العملة محل العملة السلجوقية، التي كانت شائعة الاستعمال في جميع أنحاء الدولة العثمانية قبل ظهور هذه العملة.

كذلك اهتم أورخان بمسألة الزي الرسمي لمنسوبي الدولة فخصص ملابس خاصة بالجند وأخرى لرجال الدولة وغيرها لرجال البلاط. واهتم أيضاً باستتباب الأمن وتعمير البلاد وفتح المدارس. ومن تلك المدارس على سبيل المثال لا الحصر: المدرسة العالية التي أنشأها في مدينة بروسه، والمدرسة العالية في مدينة نيقوميديا. كذلك قام ببناء الجوامع والتكيات والمصحات وأجزل العطاء للعلماء والشعراء[3]. وفي عام ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م توفي السلطان أورخان بن عثمان بعد فتوحات عظيمة وتنظيمات عديدة أعلا بها شأن الأمة الإسلامية وقد دفن في بروسه وخلفه ابنه مراد.

---

(١) محمد كمال الدسوقي: المرجع السابق، ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٢٢؛ وكارل بروكلمان: المرجع السابق، ص ٤١٢.

(٣) Barkhausen, J. Op. Cit., P. 47 - 49;
محمد كمال الدسوقي: المرجع السابق، ص ١٦ ـ ١٧.

السلطان مراد الأول: ٧٦١ ـ ٧٩١هـ/ ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩:

السلطان مراد الأول هو الابن الثاني للسلطان أورخان، وقد ولد في عام ٧٢٩هـ، وكانت توليته لزمام السلطة في البلاد بعد موت أبيه في عام ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م، وكان كأسلافه محارباً شجاعاً وكريماً، اهتم بالعمران والتعليم فأنشأ عدداً كبيراً من المدارس والمساجد والملاجىء في جميع المدن والقرى التابعة لدولته.

وبالنسبة لفتوحاته فإنه استمر في فتوحاته في أوروبا وآسيا الصغرى على حد سواء. ففي نفس العام الذي تولى فيه زمام السلطة في البلاد قام بإرسال حملة إلى أنقرة في آسيا الصغرى، والتي كانت قد ضمت إلى الدولة العثمانية في عام ٦٥٥هـ الموافق ١٣٥٤م، على يد شقيقه الأكبر سليمان، وذلك للقضاء على حركة المتمردين فيها، ثم بعد ذلك تحرك إلى مدينة ادرنه (Adrianople) في شرق أوروبا، واستطاع ضمها إلى دولته وذلك في عام ٧٦٢هـ الموافق ١٣٦١م. ثم نقل عاصمته من بروسه إليها. وقد كانت ادرنه عاصمة منطقة تراقيا وثاني مدينة في الامبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، وبذلك انتقلت عاصمة الدولة العثمانية من آسيا الصغرى إلى أوروبا. وكان اختيار مراد لأدرنه كعاصمة لدولته، راجعاً إلى أهمية موقعها الجغرافي، ووجودها على ملتقى ثلاثة أنهر[1]. وقد بقيت عاصمة للدولة العثمانية حتى تم فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح في عام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م، فانتقلت العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية، وبقيت فيها حتى سقوط الدولة العثمانية. كما افتتح السلطان مراد الأول أيضاً مدينة (فيلبه) عاصمة الروملي[2] الشرقية فيما بعد، وكذلك مدينتي (ورداروكلجمينا)، وهي مدن تحيط بالقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وبذلك أصبحت القسطنطينية

(١) محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) روملي = روم ايله = ولاية الروم = شرق أوروبا.

محاطة من معظم جهاتها بأملاك الدولة العثمانية وفصلت عن معظم الإمارات المسيحية التي كانت في شبه جزيرة البلقان[1] (Balkan). ولقد أفزع نبأ سقوط أدرنة في يد المسلمين البابا أوربان الخامس زعيم الصليبية المعادية للإسلام والأمة الإسلامية فدعا نصارى أوروبا إلى حرب صليبية لإنقاذ أدرنه من أيدي المسلمين[2].

وقد أدرك مراد الأول أهمية الموقف فأخذ يحصن أدرنة تحصيناً منيعاً ويهتم بها اهتماماً بالغاً، فتحولت من مدينة بيزنطية مسيحية إلى عاصمة عثمانية إسلامية، وكثر فيها الموظفون، ورجال الدولة، وضباط الجيش، وكبار العلماء كما كثرت بها المدارس ومراكز تدريب الانكشارية (الجيش الجديد)، مما جعلها نقطة ارتكاز هامة عسكرياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً.

إن نداء البابا أوروبا الخامس لم يستجب له، سوى حكام شبه جزيرة البلقان، وبصورة خاصة سكان الصرب والبلغار الذين خشوا أن يقعوا في يد الجيوش العثمانية عاجلاً وآجلاً، ولهذا قاموا بتكوين تحالف صليبي ضد الدولة العثمانية ضم الصرب والبلغار والهنغار[3]، وكونوا جيشاً كبيراً، تقدموا به في عام ٧٦٥هـ الموافق ١٣٦٤م إلى أدرنه، لاستعادتها من العثمانيين، لكن الجيش العثماني كان لهم بالمرصاد فهزمهم هزيمة عظيمة وشتت جموعهم، ثم تقدم الجيش العثماني واستولى على بلغاريا كلها، بعد مقاومة بسيطة من البلغاريين، وذلك عام ٧٦٧هـ الموافق ١٣٦٦م، وقد وافق ملك بلغاريا على دفع الجزية للسلطان العثماني. ثم أن الجيش العثماني قام بهجوم جديد على منطقة الصرب، واستطاع في عام ٧٧٢هـ الموافق ١٣٧١م إنزال هزيمة كبيرة بالصربيين، وإجبار زعيمهم على دفع الجزية للسلطان العثماني. ولقد كان

---

(١) محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٢) Wittek, p. The Rise of the Ottoman Empire, (London: 1938), P. 354.

(٣) Babinger, F. Beitraege Zur Fruehgeschichte der Turkerherrschaft in Rumelien, 14 - 15 Jahrhundert, (Muenchen: 1944), PP. 20 - 28.

الخلاف بين الدولة المسيحية في المنطقة من الوجهة السياسية والدينية عاملاً من العوامل التي مهدت للعثمانيين سبل الفتح الإسلامي في تلك المناطق(١).

ولقد استمرت المعارك بين الجيش الإسلامي العثماني والجيوش الأوربية النصرانية المعادية مدة من الزمن، وكانت نتيجة هذه المعارك في النهاية هي انتصار الجيوش العثمانية في كثير من المعارك التي خاضتها ضد تلك الجيوش الأوروبية النصرانية، وكان آخر تلك المعارك معركة (قوص أوه) والتي جرت في عام ٧٩١هـ الموافق ١٦٨٩م بين الجيوش الصربية والجيش العثماني. وقد كانت معركة عظيمة انتصر فيها الجيش الإسلامي العثماني انتصاراً عظيماً، وتم قتل لإزار Lazare ملك الصرب وأعوانه(٢).

وفي نهاية المعركة وبينما كان السلطان مراد الأول يتفقد الجند إذ قام عليه جندي صربي اسمه (ميلوك كوبلوفتش)، وطعن السلطان بخنجر طعنة كانت هي القاضية عليه فسقط على أثر ذلك شهيداً، كما سقط القاتل تحت سيوف الجيش العثماني. وكان ذلك في ١٥ شعبان عام ٧٩١هـ الموافق ٩ أغسطس عام ١٣٨٩ م، وقد دفن في مدينة بروسه، وكان عمره ٦٥ سنة وبلغت مدة حكمه حوالى ثلاثين عاماً. وقد خلفه من بعده ابنه بايزيد الأول(٣).

وينسب الكثير من المؤرخين للسلطان مراد الأول أكثر من غيره الفضل بعد الله في توطيد أركان الدولة العثمانية، وخاصة في شرق أوروبا، إذ

---

(١) Marriatt, J.A.R. The Eastern Question, A Historical Study in European Diplomacy, (Fourth Edition, Oxford: 1969), P. 60 - 67.

(٢) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) عبد المؤمن السيد أكرم: أضواء على تاريخ توران: تركستان (الطبعة الأولى، مكة المكرمة، مطابع رابطة العالم الإسلامي: ١٣٩٥هـ)، ص ١٦٨.
أنظر أيضاً: محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

استطاع بحكمته وسياسته أن يجعل الدولـة العثمانيـة قويـة في تلك المناطق. كما أنه انتهج سياسة خاصة بالنسبة لرعايا تلك المناطق حيث غرس فيهم حب الإسلام، ونشر فيهم الثقافة الإسلامية وسمـح لهم بأخـذ الرعـوية العثمـانية. والغاية من ذلك هو دمج هذه العناصر الجـديدة في الـدولة العثمـانية وجعلهم شعوباً إسلامية، وقد أصبح لهم جميـع الحقوق التي كـان يتمتع بهـا المواطن العثمـاني نفسـه. أمـا المنـاطق التي كـانت تـرفض اعتنـاق الإسـلام، فكـان السلطان مراد يطلب من سكانه دفع الجزيـة، ومعاملتهم معـاملة أهل الـذمة. فكان معظمهم يـدفعون الجـزية ولكنهم بعـد فترة يتحـولون إلى الإســلام عن قنـاعة بعـد أن يعرفـوا مزايـا هذا الـدين الإسلامي العـظيم. وبذلـك استطاع السلطان مـراد تحويـل تلك المناطق تـدريجياً من منـاطق مسيحية إلى منـاطق إســلامية يعم فيهـا الدين الإســلامي والثقافـة والحضارة الإســلاميـة، وقـد تم تحويل معـظم الكنائس إلى مسـاجد ومنـع جميع المـظاهر التي تتعـارض مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

السلطان بايزيد الأول ٧٩١ ـ ٨٠٥هـ/ ١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م:

عندما تولى السلطان بايزيد الأول السلطة في الدولة، شعر أن الأمر قـد استتب في أوروبا وذلك بفضل من الله أولاً ثم نتيجة لجهود والده مـراد الأول، فوجه اهتمامه إلى آسيا الصغرى، وكان أول السلاطين العثمانيين الذين فكروا بجد لمعالجة الوضع السياسي في آسيا الصغرى، وإخضاع الإمارات التـركية لحكمه. فبدأ في الشمال الغربي لآسيـا الصغرى، فـاستولى على أيـدين، ثم توجه إلى الإمارات التركية الأخرى، وافتتـح قونيـة وبعض المدن على البحـر الأسـود، حتى لقب بالصـاعقة (يلدرم) لحمله على أعـدائه بـطريقـة سـريعـة وخاطفة. كمـا أنه أرسـل جيوشـه إلى بلغاريـا فاكتسحهـا واستولى على إقليم ولاشيا ويترنوفو وذلك عام ٧٩٥هـ الموافق ١٣٩٣م[1].

(١) Ostrogorsky, g. History of the Byzantine State, (Oxford: 1956) pp. 844 - 850.

وفي هذه الأثناء انتهز القائد الهنغاري الذي يدعى (سيجوند) فرصة إنشغال بايزيد في حروبه في آسيا الصغرى، فكون تحالفاً صليبياً جديداً بزعامته وزعامة البابا بونيفاس التاسع، هاجم به المناطق التي سبق أن افتتحتها الجيوش العثمانية في بلغاريا، وهدد مراكز الدولة العثمانية في أوروبا، وعندما علمت الدول الأوروبية بانتصارات ملك المجرو البابا بونويفاس، سارعت إلى إرسال قواتها وفرسانها للاشتراك في هذه الحرب. وكانت هذه الدول هي ألمانيا وبريطانيا وسويسرا ولوكسمبورغ وبولندا وبعض الإمارات الإيطالية. وقامت البندقية بتقديم مجموعة من السفن لنقل تلك القوات إلى الحدود الشرقية لأوروبا، وبلغ حجم تلك القوات مائة وعشرون ألف مقاتل يمثلون تلك الدول المسيحية، وكان هذا التحرك من أخطر التحركات الصليبية ضد الدولة العثمانية.

وعندما علم بايزيد بالتحالف الصليبي الجديد سارع إلى تجهيز قوة تقارب قوات التحالف الصليبي وتمتاز عنها بوحدتها وحسن تنظيمها وإيمانها بربها.

وفي شهر ذي الحجة عام ٧٩٨هـ الموافق أواخر شهر سبتمبر ١٣٩٥م التقت الجيوش العثمانية بجيوش التحالف الصليبي قرب نهر الدانوب عند نيوبوليس Nicopolis ولقي الصليبيون هزيمة عظيمة وتفتت جموعهم، وأصبحت أسلحتهم ومعداتهم غنيمة للجيش العثماني، ووقع عدد من أمرائهم في الأسر، ولم يفك أسرهم حتى قدموا فدية مقدارها عشرون ألف قطعة ذهبية. وقد كانت هذه المعركة نصراً كبيراً للإسلام على جموع الصليبية الحاقدة، كما أنها وطدت مركز الدولة العثمانية في منطقة البلقان بكاملها[1].

ولم يكتف بايزيد بذلك بل أنه أخذ يعمل على فتح القسطنطينية، التي

---

(١) محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، ص ٢٦ ـ ٢٧ انظر أيضاً
Vasiliev, A.A History of the Byzantine Empire (Madison Wisc., 1952) p. 629 ff.

تعتبر كمدينة روما قاعدة للمسيحية في الشرق. ونـظراً لأن فتحها يحتـاج إلى استعداد كبير وبناء أسطول حربي عظيم، فإنه اكتفى بـأن بنى حولهـا عدداً من القـلاع وخاصـة على البسفور. وكـانت جنوه والبندقيـة دائمـاً على استعـداد لحماية القسطنطينية بأساطيلها الحربية القوية. ولذلك أخذ بايزيد يستعد لفتح القسطنطينية، وبينما هو مشغول في الاستعداد لفتح القسطنطينيـة واجه تحـركاً خطيراً كاد أن يقضي على الدولة العثمانية.

تيمورلنك ومعركة أنقره:

في عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م داهم بايزيد ودولته خطر جـديد من الشـرق، اضـطره أن يصرف اهتمـامه للتخلص من هـذا الخطر، الـذي جاء يـزحف به تيمورلنك المغولي آخر غزاة التتر، والـذي سار بجيش بلغ عـدد رجالـه ٢٨٠ ألف جنـدي، هاجم بهم منـاطق في شرق ووسط آسيـا الصغـرى، واستـولى على سيـواس بهضبة ارمنيـا وتقابـل مـع الجيش العثمـاني بقيـادة ارطغـرل بن بـايزيـد، والذي كـان على رأس قوة عثمـانية تـواصل فتـوحـاتهـا شـرق آسيـا الصغرى، وتمكن من قتل ارطغرل وهزيمـة جيشه الـذي أصبح غنيمـة لجيش تيمورلنك. فما كان من السلطان بايزيد عندما علم بهزيمـة جيشه، وقتـل ابنه إلا أن غضب وقام بتجهيز جيش عظيم قاده بنفسه وسار بـه إلى أنقره. فتقـابل الجيشان في أواخر شهر ذي الحجة عـام ٨٠٤هـ الموافق يـوليو عـام ١٤٠٢م في مـدينة أنقـره، وقد ارتكب بـايزيـد خطأً كبيـراً بأن سـاق جيوشـه إلى هذه المعركة قبل أن تستريح من عناء سفرها الطويل. كمـا أنه أدخـل جيشه سهـل أنقره بينما كان تيمورلنك يحتل سفوح المرتفعات حول ميدان المعركة. ثم ان بايزيد وضع جنـده المرتـزقه في المقـدمة، فلمـا بدأت المعـركة انضم هؤلاء الجند إلى صفوف تيمورلنك، ومني بايزيد نتيجة لذلك بهزيمة كبيرة ووقع في أوائـل عام ٨٠٥هـ المـوافق ١٤٠٢م أسيراً في يـد عدوه تيمـورلنك. فكـانت معـركة أنقـره ذات أهمية، خـاصة لأنهـا أول معركـة هزم فيهـا جيش الـدولـة العثمانية هزيمة نكـراء بعد انتصـارات متواليـة دامت أكثر من قـرن. ولكن لم

يكن لهذه المعركة أثر بالغ، إذ أن تيمورلنك لم يواصل زحفه حتى عاصمة الدولة العثمانية (ادرنه)، والتي كان بها أبناء بايزيد، وعلى رأسهم ابنه محمد، الذي كان بمثابة ولي العهد لوالده. وقد اكتفى تيمورلنك بما تحقق له من انتصار في معركة أنقره، وعاد إلى سمرقند في آسيا الصغرى، ومعه السلطان بايزيد الأول والذي توفي في ١٥ شعبان عام ٨٠٥هـ الموافق ٩ مارس ١٤٠٣م وعمره آنذاك ٥٧ سنة بعد حكم دام حوالى ١٤ عاماً. وفي نفس العام توفي تيمورلنك[١].

أما بالنسبة لأثر ذلك على الدولة العثمانية، فإنه بالرغم من هزيمة السلطان بايزيد الأول وأسره بواسطة تيمورلنك، فإن أبناءه استطاعوا المحافظة على كيان الدولة. وتولى محمد بن بايزيد الابن الأكبر آنذاك السلطة في عاصمة الدولة العثمانية، وأعلن نفسه سلطاناً على الدولة. لكن الخلاف ما لبث أن نشب بينه وبين أخوته سليمان وعيسى وموسى[٢]، الذين كانوا ينافسون شقيقهم محمد في تولي السلطة بعد أسر والدهم أو على الأقل اقتسام الدولة فيما بينهم. فلقد طلب موسى اقتسام الدولة بينه وبين أخوته، على أن يأخذ محمد الجزء الآسيوي ويترك لموسى وبقية أخوته الجزء الأوروبي. وقد رفض محمد بن بايزيد هذا الطلب وقام بمحاربة أخوته. ولذلك عاشت الدولة حالة من التمزق والفوضى والاضطرابات نتيجة الحروب الأهلية، التي استمرت حوالى إحدى عشر عاماً، من أواخر عام ٨٠٥هـ وحتى أوائل عام ٨١٦هـ. كما أن معظم المناطق التابعة للدولة العثمانية في شرق أوروبا أعلنت خروجها واستقلالها عن الدولة العثمانية. لكن محمد بايزيد استطاع في أوائل عام ٨١٦هـ الموافق ١٤١٣م، القضاء على الفتن. ولم تنته هذه الصراعات إلا

---

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٢) ترك بايزيد أربعة أبناء هم محمد وكان حاكماً على المسيه، وسليمان حاكماً على ادرنه، وعيسى حاكماً على بروسه، وموسى على أجزاء كبيرة من البلقان.
أنظر: عبد المؤمن السيد أكرم، أضواء على تاريخ توران (تركستان)، ص ١٦٩.

بعد وفاة كل من سليمان وموسى وعيسى، فتمكن محمد من محاربة الخارجين عن طاعة الدولة العثمانية. وكان أشد أخوته بأساً وأوفرهم نشاطاً، وقد وجه اهتماماته بعد أن استتب له الأمر نحو إعادة الدولة من جديد. ثم وجه فتوحاته نحو شبه جزيرة البلقان، حتى أتم فتحها فنشر الإسلام في جميع مناطقها. كذلك أرسل بعض قواته إلى آسيا الصغرى فقامت بفتوحات كبيرة وصلت إلى جبال طوروس، فأصبحت الدولة العثمانية بذلك متاخمة للدولة المملوكية. وقد عاشت الدولة في عهده الذي استمر من عام ٨١٦هـ حتى عام ٨٢٤هـ حالة من الاستقرار والهدوء وشملت فتوحاته مناطق واسعة من شرق أوروبا وآسيا الصغرى. وكان عمره عند وفاته ٣٥ عاماً ودام حكمه حوالى ثمانية أعوام(١).

السلطان مراد الثاني ٨٢٤ ـ ٨٥٤/ ١٤٢١ ـ ١٤٥١م:

تولى مقاليد السلطة في البلاد بعد والده محمد الأول، وإذا كان عهد السلطان محمد الأول هو عهد إعادة بناء الدولة بعد النكسة التي أصابتها في معركة أنقره، والصراع على السلطة بين أخوته، ورفضه مبدأ تقسيم الدولة، فإن عهد ابنه السلطان مراد الثاني كان عهد إعداد الدولة العثمانية للمهام الكبرى التي كانت مسؤولة عنها قبل تلك النكسة. ولهذا كان السلطان مراد الثاني معنياً بإعداد جيش قوي واقتصاد متين لدولته، وحدود أمينة ومنيعة في وجه أعدائه وخاصة في أوروبا المتوثبة ضده(٢).

وعلى ذلك نجد أن السلطان مراد الثاني يتصدى لهجمات أعدائه في آسيا وأوروبا، فلقد دخل في صراع عنيف مع التحالف المسيحي الأوروبي، والذي أدى إلى هزيمة الجيش العثماني والاستيلاء على بلاد الصرب. فاضطر

---

(١) عبد المؤمن السيد أكرم: أضواء على تاريخ توران، ص ١٧٠

(٢) عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية، (بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٣م) ص ٤٠ ـ ٤٢.

مراد الثاني لطلب الصلح، وعقد في عام ٨٤٧هـ/ ١٤٤٤م صلح بين القوتين المتصارعتين قوة الدولة العثمانية وقوة التحالف الأوروبي، وهو الصلح الذي كان خاتمة لحياة مراد الثاني السياسية. ولذا قرر خلع نفسه عن السلطة وتولى مكانه ابنه محمد الثاني. لكن مراد عاد يطلب من ابنه محمد الثاني قيادة الجيش العثماني، الذي كان يحارب في أوروبا. وقد تمكن الجيش من تحقيق انتصارات كبيرة وهزم الجيش المجري هزيمة نكراء. وبذلك الانتصار عاد مراد الثاني إلى السلطة حتى وفاته في السادس عشر من شهر محرم عام ٨٥٥هـ الموافق الثامن عشر من شهر فبراير عام ١٤٥١م. فخلفه للمرة الثانية ابنه محمد الثاني.

السلطان محمد الثاني (الفاتح) ٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ/ ١٤٥١ ـ ١٤٨١م:

تولى السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني[1] حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في ١٦ محرم عام ٨٥٥هـ الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١م، وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة. ولقد امتاز السلطان محمد الثاني (الفاتح) بشخصية فذة تجمع بين القوة والعدل كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء، وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره، وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال[2]، حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية. وقد سار على نفس السياسة التي سار عليها والده وأسلافه من سلاطين الدولة العثمانية. وقد كان أول عمل قام به بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية هو قيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف. وكذلك ركز اهتمامه بالجيش فأعاد

(١) ولد في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣هـ الموافق ٣٠ أبريل سنة ١٤٢٩م.

(٢) Lane - Pool, S. Turkey, (London: 1888) pp. 100 - 101.

تنظيمه ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وزودهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر. وعمل على تنظيم الأقاليم من جديد وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم. كما عين ولاة آخرين في بعض الأقاليم نظراً لتقصيرهم في أعمالهم، ونظم البلاط السلطاني وزوده بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة[1] مما كان له أثره الكبير في استقرار أوضاع الدولة والسير بها خطوات كبيرة إلى الأمام.

وبعد أن اطمئن السلطان محمد الثاني (الفاتح) على استقرار وسلامة الوضع الداخلي في دولته اتجه بعد ذلك إلى تحقيق طموحاته، وهي توجيه فتوحاته نحو المناطق المسيحية في أوروبا، وذلك لنشر الإسلام فيها، استغلَّ في ذلك الضعف الذي وصلت إليه الامبراطورية البيزنطية نتيجة للمنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطقها ومدنها.

ولم يكتف السلطان محمد بذلك بل انه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الامبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية.

فتح القسطنطينية:

قبل الحديث عن فتح القسطنطيبية في عهد السلطان محمد الفاتح لا بد لنا أن نعطي لمحة مختصرة عن المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية ونشر الإسلام في شرق ووسط أوروبا والقضاء على الدولة البيزنطية.

---

(١) Alderson, S. D. The Structure of the Ottoman Dynasty, (Oxford: 1959) p. 123.

لقد شهد عام ٤٨هـ الموافق ٦٦٨م أولى المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية، ففي ذلك العام جهز الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان جيشاً إسلامياً لفتح القسطنطينية وأرسله براً وبحراً. وكان هذا الجيش بقيادة سفيان بن عوف، وخرج معه عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري. وقد أمر معاوية ابنه يزيد على هذا الجيش، فساروا حتى بلغوا مدينة القسطنطينية بعد كفاح عنيف مع القوى المعادية للإسلام والمسلمين. وعند القسطنطينية دارت معركة عظيمة بين المسلمين والروم حارب فيها المسلمون ببسالة فائقة، وظل المسلمون يجاهدون على هذا النحو عدة أعوام دون أن تتمكن أساطيلهم وجيوشهم من فتح القسطنطينية، وذلك لمتانة أسوارها ومنعة قلاعها وموقعها الاستراتيجي الهام، وكثرة سفن العدو وتسلطهم على السفن الإسلامية بإحراقها أو إغراقها، وقد قتل أثناء هذه المعارك أبو أيوب الأنصاري، فدفن عند أسوار القسطنطينية عام ٤٩هـ الموافق ٦٦٩م وبالرغم من ذلك فإن الجيوش الإسلامية استمرت في جهادها من أجل نشر الإسلام في تلك المناطق[1].

وقبل وفاة الخليفة معاوية تم فك الحصار عن القسطنطينية من أجل إعداد قوة كبيرة للقيام بهذه المهمة. وعندما تولى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ/ ٧٠٥ - ٧١٥م- أخذ يعد العدة لفتح القسطنطينية لكن الوليد توفي قبل خروج الحملة إلى القسطنطينية، فاتجه أخوه وخليفته سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ/ ٧١٥ - ٧١٧هـ) لتنفيذ هذا الهدف العظيم، وتجلت حماسة الخليفة ومن ورائه الدولة الإسلامية في إعداد جيش وأسطول عظيمين، وسلم قيادة هذه الحملة لأخيه مسلمة[2]. فسار هذا الجيش

---

(١) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص ٢٣٢.
ومحمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، ص ٣٣.

(٢) عبد السلام عبد العزيز فهمي: السلطان محمد الفاتح، (الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم: ١٩٧٥م)، ص ٦٧.

عبر أراضي آسيا الصغرى يفتح مدنها الواحدة تلو الأخرى، وينشر فيها الإسلام[1]، حتى وصل إلى أسوار القسطنطينية في ١٥ أغسطس عام ٩٨هـ/٧١٧م. وتبعه الأسطول الإسلامي من ثغور مصر والشام حتى وصل إلى مياه القسطنطينية في أول سبتمبر من العام نفسه[2]. وتم حصار القسطنطينية براً وبحراً. وفي تلك الأثناء حدثت خيانة كبيرة، ذلك أن ليو البيزنطي الذي كان يطمع في عرش بيزنطة خرج على المسلمين بعد أن أعلن وقوفه بجانبهم، وأعلن نفسه إمبراطوراً على بلاد الروم بدلاً من انستسياس الثاني امبراطور الروم آنذاك. وعمل على استدراج سفن المسلمين إلى الداخل فأخذ بعد ذلك بالفتك بها، مستخدماً في ذلك النار الإغريقية حتى دمر أكثرها وقطع وصول المؤن والأقوات إلى جند المسلمين. في الوقت الذي أخذت فيه قوات انستسياس الثاني تهاجم القوات الإسلامية حول أسوار القسطنطينية، وقد صمدت القوات الإسلامية أمام هذا الهجوم العنيف من البر والبحر، وصادف حلول فصل الشتاء فتوقفت المعارك من الجانبين. وقد انتهزت القوات الإسلامية هذه الفرصة فطلبت من الخليفة إرسال نجدات جديدة، وبحلول فصل الربيع وصلت تلك النجدات عن طريق البحر من مصر والشام وشمال أفريقيا، فاستأنفت القوات الإسلامية هجومها على القسطنطينية والتجمعات المعادية للإسلام والمسلمين، واستمرت على هذا النحو عاماً كاملاً، واستطاعت أن تنشر الإسلام في معظم مناطق آسيا الصغرى[3].

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة، التي مدت سلطتها إلى آسيا الصغرى. كما أن زعيمها الب ارسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م) استطاع أن يهزم امبراطور

---

(١) محمد كمال الدسوقي: المصدر السابق، ص ٣٤.

(٢) عبد السلام فهمي ـ المصدر السابق، ص ٦٧.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلامي السياسي، جـ ١، ص ٣٢٣.

الروم ديمونوس في موقعه ملازكــرد عام ٤٦٤هـ/١٠٧٠م ثم أسـره وضربـه وسجنـه وبعد مـدة أطلق سراحـه بعد أن تعهـد بدفـع جزيـة سنويـة للسلطان السلجوقي، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من امبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية.

وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجه غرباً وإضعاف الامبراطورية الرومانية.

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم في آسيا الصغرى كما مـر بنا. وقـد وضعوا نصب أعينهم فتـح القسـطنطينيـة، وأخـذوا يعملون على تحقيق هـذا الهـدف. وقـد تحقق هـذا الحلم الكبير على يد السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) بعد حـوالى قرن ونصف من قيـام الدولـة العثمانيـة، والذي أدرك أنـه لا بد من إصـلاح الأمور الـداخلية أولاً ثم الاتجـاه إلى الفتوحـات، وبعـد أن تم لـه إصـلاح الـوضـع الداخلي اتجه إلى الفتوحات، وكان أول عمل قام به من أجل تحقيق فتوحـاته في شرق أوروبا هو العمل على تحديد مـوقف الـدول المجاورة من تحـركاتـه في شرق أوروبا، ولذلك نجده يعقد هدنة مع القائـد هونيـادي المجري ومـع صـاحب صربيـا ومع الأميـر ولاشيـا، حتى يضمن عـدم تحـرك تلك الفئـات ضده[1]. ثم انه اتجه بعد ذلـك إلى عقد معـاهدة مـع حاكم حكـومة البنـدقية وأمراء الأفلاق والبوسه، ومع فرسـان الاستبياريـة (القديس يـوحنا) في رودس، ومع حاكم ألبانيا اسكندر بك، ومع حكومة جنوه وغيرهم من الدول المجـاورة أو البعيدة.

---

(١) محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، ص ٣٧.

استعدادات السلطان محمد الثاني (الفاتح) العسكرية للمعركة:

قبل أن يبدأ السلطان محمد الثاني (الفاتح) في تحركاته العسكرية لفتح القسطنطينية قام بتدعيم مركزه في آسيا الصغرى، فسار بنفسه على رأس جيش كبير لإخضاع أمير كرومان التركي الذي أعلن خروجه عن طاعة السلطان العثماني. وقد نجح السلطان محمد الثاني (الفاتح) في إخضاعه وضم مناطقه للدولة العثمانية وذلك في أواخر عام ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م ثم عاد إلى أدرنه، ومنها بدأ يستعد لفتح القسطنطينية[1].

وقد كان أول عمل قام به هو تعزيز اسطوله الحربي بسفن جديدة، وتشييد قلعة حصينة على الضفة الغربية من مضيق البسفور عرفت باسم «روم ايلي حصار» على بعد خمسة أميال من القسطنطينية، مقابلة للقلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول على الضفة الشرقية منه والتي تعرف باسم «كوزل حصار». وذلك للسيطرة على الضفتين الأوروبية والأسيوية معاً، والتحكم في الملاحة المارة في المنطقة، ومنع وصول أي إمدادات عن طريق البحر الأسود إلى القسطنطينية، وفرض حصار سياسي وعسكري واقتصادي عليها حتى يسهل استسلامها[2]. وقد نجحت هذه الإجراءات التي اتخذها السلطان محمد الثاني في إضعاف موقف الامبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر، فأخذ يستنجد بالقوى الأوروبية المسيحية ولكن دون جدوى[3]. وقد أعقب ذلك

---

(١) محمد كمال الدسوقي: المصدر السابق، ص ٣٥.
وكارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٢) محمد كمال الدسوقي: المصدر السابق، ص ٣٥.
وعبد السلام عبد العزيز فهمي: السلطان محمد الفاتح، ص ٧٢ ـ ٧٣.
عزيز سوريال عطيه: العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر يوسف (القاهرة: ١٩٧٢م) ص ١٣٧؛ وعبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية (بيروت: ١٩٧٣م) ص ٤٩ ـ ٥٠، ونورمان بينز: الامبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس وآخرون (القاهرة: ١٩٥٠م) ص ٢٦٢.

(٣) سعيد عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، (القاهرة: ١٩٦٦م)، جـ ١، ص ٦٥٦؛=

تدهور كبير في الوضع الاقتصادي للامبراطورية البيزنطية نتيجة للاستعدادات الحربية والحصار العثماني المستمر لها. ولم يكن هذا التدهور الاقتصادي قاصراً على الامبراطورية البيزنطية بل كان شاملاً للدول الأوروبية الكبرى المسيحية، ففرنسا وانجلترا انهكتهما حرب المائة عام، واما بالنسبة لألمانيا فإنها كانت تعاني من أزمات سياسية حادة مزقت كيانها، ولذلك نجد أن الدول الأوروبية الكبرى لم تستطيع مساعدة الدولة البيزنطية[1].

ثم ان السلطان محمد الثاني (الفاتح) أمر بأن تنصب على الشاطىء محانيق ومدافع ضخمة وكثيرة، وأن تصوب أفواهها إلى القسطنطينية، وتمنع السفن الرومية من المرور إلى الداخل. وقد أخذت القوات الرومانية في محاولة للاعتداء على تلك التحصينات وهدم القلاع، مما جعل السلطان محمد الثاني (الفاتح) يعلن رسمياً الحرب على الامبراطورية الرومانية، وعين فيروز آغا قائداً للقلعة الجديدة وجعل معه قوة كبيرة من الجيش الانكشاري، وأمره ألا يسمح لأي سفينة أجنبية بالمرور إلا بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة وإن أبت أطلق عليها القذائف. وأخذت حامية القلعة تنفذ تلك الأوامر بشدة، ففرضت بذلك سيطرتها التامة على المنطقة. ثم ان السلطان قام بالتقدم إلى المنطقة ومعه جيش كبير مكون من خمسين ألف مقاتل نزل به حول القسطنطينية ولم يمكث طويلاً بل عاد بعد فترة قصيرة إلى أدرنه. وكان غرضه من هذا التحرك هو تعزيز موقف قواته واستطلاع الموقف العسكري في المنطقة، وقد تم توزيع لك القوات على مختلف المحاور وأعطيت لهم التعليمات بصد أي تحرك من جانب الروم.

رجع السلطان محمد الثاني (الفاتح) إلى أدرنه ليتم استعداداته، وفي الوقت نفسه كان الامبراطور الجديد قسطنطين الحادي عشر يعمل ليل نهار

= وعبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية، ص ٤٦ ـ ٤٩.

(١) The Cambridge Mediveal History, Vol. 4, P. 695.

في تحصين مدينة القسطنطينية وإصلاح أسوارها، وجمع ما يملك من سلاح وذخائر ومؤن. كما أنه أرسل البعوث إلى حكام أوروبا يطلب منهم النجدة. واستمر الوضع من جانب القوتين المتحاربتين على هذا المنوال طوال عام ٨٥٦هـ أواخر عام ١٤٥٢م وبداية عام ١٤٥٣م كل منهم يستعد ويجهز قواته للمعركة الفاصلة. ويظهر أن فترة الشتاء الشديد هي التي أجلت ساعة اللقاء.

ولكن بعد انتهاء فصل الشتاء بدأت بوادر الحرب تظهر، وذلك عندما تقدم السلطان محمد (الفاتح) ومعه حوالى ربع مليون مقاتل وأسطول ضخم مكون من عدد كبير من السفن، وأخذ في محاصرة القسطنطينية، ومنع اتصالها بالبلاد المجاورة لها[1].

المعركة:

نسق السلطان محمد الثاني قواته تنسيقاً دقيقاً طبقاً لخطة حربية محكمة، اشترك معه في وضعها كبار القادة في الجيش والأسطول العثماني. وكانت الخطة تقضي بأن يتعاون الفرسان مع المشاة مع المدفعية والجنود النظاميين والفرق الخاصة، مع فرق الجنود غير النظامية في حصار القسطنطينية. أما الأسطول العثماني والذي كان مكوناً من ٣٢٠ سفينة حربية من مختلف الأحجام فإنه عبر بحر مرمره إلى البسفور حيث ألقى مراسيه هناك وقام بسد مدخله، ثم انضمت إليه بعض القطع الحربية العثمانية من البحر الأسود.

وفي ٢٧ ربيع الأول عام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣/٤/٦م بدأ الحصار الفعلي للقسطنطينية. وقد كانت مدينة أشبه بمثلث متساوي الساقين، ويحيط بها أسوار منيعة تمتد من القرن الذهبي إلى بحر مرمرة، ويبلغ ارتفاع السور الخارجي نحو خمس وعشرين قدماً، وعليه أبراج حصينة شبيهة بأبراج السور

---

(١) عبد السلام فهمي: المصدر السابق، ص ٧٢ - ٨٢.

الداخلي وإن كانت أصغر حجماً منها، كما أن به أبواباً عديدة أهمها باب ادرنه وباب المدفع والباب العسكري الثالث وباب القديس رومان. أما السور الثاني فهو سور داخلي يبلغ ارتفاعه نحو أربعين قدماً، وقد دعم بأبراج بارتفاع ستون قدماً، وتبلغ المساحة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدماً، وبين السورين الداخلي والخارجي أرض فضاء يبلغ متوسط عرضها ما بين خمسين وستين قدماً. ويقع أمام السور الخارجي عدة متاريس للمراقبة تطل على خندق واسع حفر ليحيط بالمدينة من جميع جوانبها، ويبلغ عرضه نحو ستين قدماً وعمقه مائة قدم. ويعتبر هذا الخندق بمثابة خط الدفاع الأول عن مدينة القسطنطينية. وخلف هذه الأسوار والخندق وقفت أعداد كبيرة من قوات الامبراطور قسطنطين والتي حددتها المصادر العربية والتركية بأربعين ألف من الجنود المسلحين ذلك لأن السلطان محمداً الثاني فرض حصاراً قوياً على القسطنطينية، وقامت قواته أثناء ذلك بتدمير أي قوة أجنبية تحاول الاقتراب لتقديم المساعدة للقسطنطينية، ففقدت المدينة بذلك أي اتصال بالبلاد المجاورة لها[1].

وكان السلطان العثماني قد قسم قواته إلى أربعة أقسام رئيسية هي: المقدمة والميمنة والميسرة والقلب، فجعل زغنوس باشا الألباني في مقدمة الجيش غير النظامي، وكان يحتل المرتفعات المشرفة على حي غلطة، وحدد السلطان مهمته بمراقبة سكان حي غلطة الجنوبية، ومنعهم من مد يد المساعدة إلى المدينة المحاصرة، ومراقبة الشاطىء الشمالي من القرن الذهبي، كما جعل إسحاق باشا حاكم الأناضول على جيش الميمنة وقيادة الجنود الأسيوية (الأناضولية)، كما جعله مسؤولاً عن المدفعية، ويعاونه في ذلك محمود بك، وكل منهما قائد عظيم، كبير التجربة في مسائل الحرب،

---

(١) سالم الرشيدي: محمد الفاتح، (بيروت: ١٩٦٩م) ص ٩٥ ـ ٩٦؛ ومحمد زيادة: دراسات في التاريخ الإسلامي (القاهرة: ١٩٦٨م)، ص ٥٢٩ ـ ٥٣١؛ وعبد السلام فهمي: السلطان محمد الفاتح، ص ٧٧ ـ ٨٨.

وعلى دراية واسعة بفنونها. وجعل صاريجه باشا حاكم الرومللي على جيش الميسرة، وحدد له مهمته بالهجوم على المدينة من بداية القرن الذهبي وحتى باب أدرنه، وكان جيش الميسرة يتألف من جنود الرومللي والمتطوعين غير النظامية. وتولى السلطان محمد الفاتح ومعه خليل باشا وزيره الأول قيادة المنطقة الوسطى أو القلب، وكان الجيش الذي معه يتألف من الجنود الأنكشارية، ويحتل المنطقة الوسطى من السور والذي يقع بين باب ادرنه وباب القديس رومان.

وفي الوقت نفسه حدد السلطان مهمة الأسطول العثماني في منع وصول أي تموينات أو عتاد حربي إلى القسطنطينية عن طريق البحر، وضرب السفن التي تحاول الوصول إلى المنطقة المحاصرة أو الاقتراب من مواقع الجيش العثماني المرابط حول أسوار المدينة.

وعندما بدأ الحصار للقسطنطينية حاول السلطان إقناع الامبراطور قسطنطين بالتسليم، وتعهد له بأن يحترم سكانها ويؤمنهم على أرواحهم وممتلكاتهم، لكن الامبراطور رفض التسليم. وعندما لم يستجيب الامبراطور قسطنطين لمطالب السلطان بدأت المعركة بين الطرفين واستمرت المعارك وحصار القسطنطينية حوالى ثلاثة وخمسين يوماً، من يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ الموافق ٦ ابريل سنة ١٤٥٣م وحتى ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م[1].

ففي ظهر يوم ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م دخل السلطان محمد الثاني (الفاتح) القسطنطينية وأمر جنده بمنع أي اعتداء

---

(١) عبد العزيز فهمي: السلطان محمد الفاتح، ص ٨٤ ـ ١٢٢؛
ومحمد فريد بك: الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ص ١٦٣ ـ ١٦٤؛
وسالم الرشيدي: محمد الفاتح، ص ١٠٠ ـ ١٠١.
و Lane Poal; Turkey, pp. 108 - 112.

ومعاملة السلطان بالحسنى، ثم توجه السلطان إلى كنيسة (أيا صوفيا) وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين، وقام الجميع بأداء الصلاة جماعة. ومنذ ذلك التاريخ أصبح ذلك المكان جامعاً كبيراً تصلى فيه جميع الصلوات.

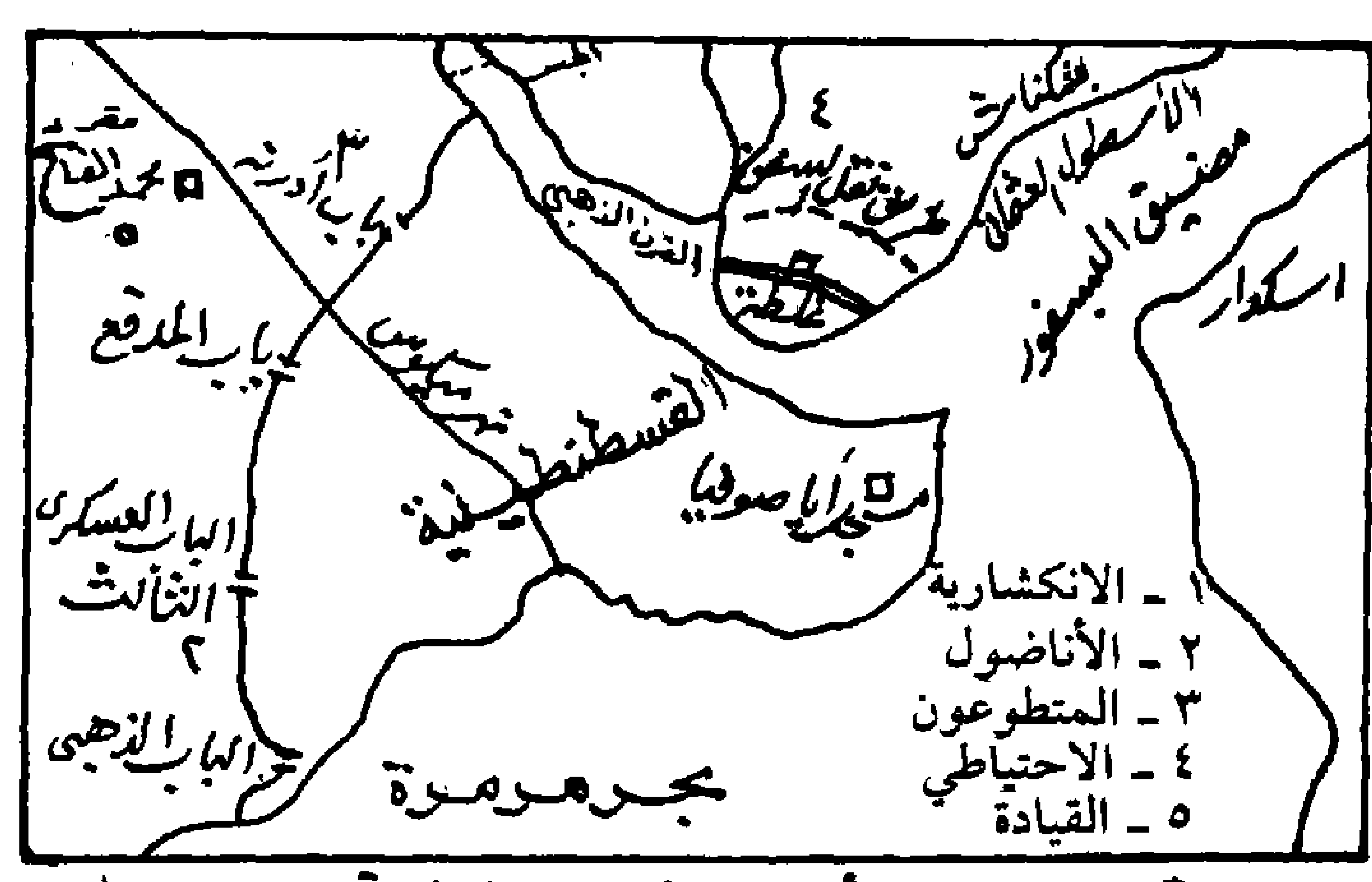
أما الامبراطور قسطنطين الحادي عشر فإنه لما رأى الأعلام الإسلامية العثمانية ترفرف داخل مدينة القسطنطينية فإنه فر شمالاً، فواجه جموع المسلمين تتدفق إلى داخل المدينة كالسيل الجارف، فنزل عن حصانه، وخلع ملابس القيصرية، وسل سيفه، وأخذ يضرب به ذات اليمين وذات الشمال حتى كلت يده، فبرز له أحد الجنود الأتراك وأصابه بضربة سيف قاتلة، خر بعدها صريعاً، وبذلك تمزقت وحدة جيش الروم وفر الحماة منهم تاركين أبوبا المدينة ومنافذها وأبراجها مفتوحة أمام جيش الفاتح، وذهبوا يتلمسون النجاة لأنفسهم، طالبين من الجند العثماني الإبقاء على حياتهم بعد أن سلموا لهم أسلحتهم وذخائرهم[1]، وهكذا أنزل الله بهم الذل والهزيمة وأعز جند الإسلام بالنصر والقوة.

وبالنسبة للقتال البحري الذي كانت تخوضه السفن العثمانية ضد سفن الروم في البحار المحيطة بالقسطنطينية، فإن الروم الذين كانوا يحاربون من على السفن أفزعهم منظر الأعلام الإسلامية العثمانية ترفرف فوق أبراج سور القسطنطينية، فأصيبوا بذهول شديد وانهارت دفاعاتهم ومعنوياتهم، بعد أن تأكد لهم دخول الجيوش الإسلامية إلى القسطنطينية، وانه لا جدوى من المقاومة، فمنهم من استسلم بمراكبه، ومنهم من فر بسفينته بعيداً عن ميدان القتال يطلب النجاة ويتلمس طريقاً للبقاء على قيد الحياة[2].

وبذلك تم فتح مدينة القسطنطينية بعد معارك شديدة وصراعات عنيفة

---

(١) يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، ص ٦٠.
(٢) عبد السلام فهمي: السلطان محمد الفاتح، ص ١٢٥ - ١٢٦.



الشكل رقم -٢- مواقع أقسام الجيش العثماني حول مدينة القسطنطينية

خاضها الجيش الإسلامي العثماني، استسلمت على أثرها جميع قوى المقاومة في الداخل والخارج، وبفتح القسطنطينية تم القضاء على أكبر مركز من مراكز الحملات الصليبية التي هددت العالم الإسلامي قروناً عديدة وأذاقته ويلات من الدمار والهلاك.

وقد أرسل السلطان محمد الفاتح رسائل إلى حكام الديار الإسلامية يخبرهم بهذا النصر الإسلامي العظيم ومن جملتهم السلطان المملوكي في مصر وكان تاريخ الرسالة المرسلة إلى السلطان المملوكي هو ذو القعدة سنة ٨٥٧هـ/ تشرين الثاني ١٤٥٣م. فعمت الفرحة جميع البلاد الإسلامية وأعلنت البشائر على منابر المساجد وزينت المدن الإسلامية عدة أيام، كما أرسل السلطان محمد الفاتح رسولاً من عنده هو العالم الحاج محمد الزيتوني يحمل هذه البشرى العظيمة مع رسالة إلى حكام الحرمين الشريفين، ويعلمهم بأنه حول الكنائس إلى جوامع ومساجد، و ارسل مع رسالته هدية مقدارها ألفي قطعة من الذهب الخالص هبة منه، وسبعة آلاف قطعة ذهبية أخرى من مال الغنائم هدية من السلطان لتوزيعها على العلماء والفقراء في الحرمين الشريفين. وقد تليت هذه الرسالة أمام الكعبة المشرفة وتم توزيع تلك الأموال على أصحابها، وكان ذلك في عهد إمارة الشريف بركات بن حسن بن عجلان (٨٥١هـ/١٤٤٧م - ٨٥٩هـ/١٤٥٥م)[١].

وبهذا النصر العظيم حقق محمد الفاتح للمسلمين أملاً غالياً ظل يراودهم أكثر من ثمانية قرون، وأصبح السلطان محمد الثاني يلقب بالفاتح، لفتحه القسطنطينية. كما أطلق السلطان على القسطنطينية اسم اسلامبول أو اسطنبول[٢] أي مدينة الإسلام، وأصبحت هذه المدينة تعرف بعد الفتح

---

(١) إسماعيل حقي اوزون: امراء مكة المكرمة في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، (الطبعة الأولى، البصرة، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م) ص ١٦ - ١٧.

(٢) محمد فريد بك: الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ص ١٦٤ - ١٦٥.

الإسلامي لها بهذا الإسم[1]، كما قام بتحويل المدينة من مدينة مسيحية إلى مدينة إسلامية وجعلها مركزاً لفتوحاته في القارة الأوروبية، كما أنه نقل إليها عاصمة الدولة العثمانية من أدرنه.

ولم يكتف السلطان محمد الفاتح بهذا الفتح العظيم بل أنه جعل من مدينة اسطنبول مركز إشعاع للفكر الإسلامي ينير به القارة الأوروبية حيث قام بإنشاء المساجد والمدارس والمعاهد العلمية والمكتبات. فتوافد عليها طلاب العلم والعلماء من المناطق الإسلامية والمسيحية ينهلون من ينابيعها المتعددة مختلف العلوم والمعارف الإسلامية والعربية، واعتنق الكثير من المسيحيين الدين الإسلامي، ونشطت مع ذلك حركة التأليف والترجمة مما كان له الأثر العظيم في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في تلك البقاع[2].

ولم يكن فتح القسطنطينية هو نهاية المطاف لفتوحات السلطان محمد الفاتح الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره، حين أصبح اسمه على كل لسان في العالم الإسلامي وأوروبا على حد سواء، فلقد دفعه ذلك الفتح إلى مواصلة فتوحاته في شرق أوروبا، ففتح في عام ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م كل منطقة الصرب رغم المقاومة العنيفة التي لقيها من هونيادي ملك المجر

محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، ص ٤٢ ـ ٤٥.
سيد رضوان علي: محمد الفاتح (الطبعة الأولى، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع: ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص ٣٤ ـ ٣٩.
ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، حوادث سنة ٨٥٧هـ.

Lane Poal: Turkey, pp. 125 - 130.

(١) يخطىء الكثير من الكتاب عندما يكتب الطاء تاءاً فيكتبها استانبول تقليداً لما يكتب باللغات الأجنبية حيث لا يوجد حرف الطاء فيعوض عنه بحرف التاء، ولكن الصحيح والموجود على الخرائط العربية أنها تكتب بالطاء وليس بالتاء، فنقول اسطنبول وليس استانبول مثلما نكتب الطائف وليس التائف.

(٢) زين الدين مرعي يوسف المقدسي: قلائد العقيان في فضائل آل عثمان، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد البحوث بجامعة أم القرى، ورقة ٢٣ ـ ٢٤.

والذي توفي في نفس العام.

ثم واصل السلطان الفاتح حملاته في أوروبا فتم له فتح البوسنه، واستطاع بعد جهاد طويل من تحطيم قوة اسكندر بك الألباني الدائم الثورة على المناطق الخاضعة للدولة العثمانية في أوروبا. وبعد وفاة اسكندر بك عام ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م أصبحت ألبانيا والهرسك ولايتين عثمانيتين، كما خضعت اليونان وأغلب الجزر المحيطة بها للسلطان العثماني.

وعندما أقامت البندقية تحالفاً صليبياً مع نابولي بجنوب إيطاليا ومملكة المجر ضد السلطان محمد الفاتح، لم يخف ذلك السلطان الفاتح بل أنه تقدم بجيشه وأنزل بقوى التحالف الصليبي هزائم كبيرة وتقدم لاحتلال البندقية نفسها، مما اضطر البندقية إلى طلب الصلح، وعقدت على أثر ذلك معاهدة بين البندقية والدولة العثمانية في عام ١٤٧٩/٨٨٤م تدفع بموجبها البندقية وحليفاتها جزية سنوية لخزينة الدولة العثمانية، مقابل السماح لها بممارسة تجارتها البحرية في البحار العثمانية[1]. وبهذا النصر العظيم أصبح للدولة العثمانية الإسلامية مركزها العظيم على معظم البحار والأراضي الواقعة في شرق أوروبا مما أرهب جميع الدول والقوى المسيحية في تلك المناطق.

نهاية عهد السلطان محمد الثاني (الفاتح):

وفي ليلة الجمعة الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ الموافق ٣ مايو ١٤٨١م توفي السلطان محمد الفاتح، وكان عمره آنذاك حوالى ثلاث وخمسين عاماً بعد حكم دام نحو إحدى وثلاثين سنة، أقام خلالها دولة إسلامية كبيرة شملت جميع مناطق آسيا الصغرى، ومعظم شبه جزيرة البلقان وبلاد اليونان، حتى أصبحت تجاور شبه الجزيرة الإيطالية في أوروبا. وقد تولى من بعده ابنه بايزيد الثاني (٨٨٦ ـ ٩١٨هـ) السلطة في البلاد بعد فترة

---

(١) محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، ص ٤٦ ـ ٤٨.

من النزاع بينه وبين أخيه جم. وكان جم عندما بلغه وفاة أبيه يقيم في مدينة بروسة، وقد استطاع بعد عناء كبيرة أن يحصل على اعتراف السكان به سلطاناً على الدولة العثمانية في المناطق الخاضعة له، وبعد أن استتب له الأمر في بروسه وما حولها، أرسل إلى أخيه بايزيد يطلب منه عقد الصلح، ويقترح عليه التنازل له عن السلطة بدعوى أنه ولد عام ٨٣٢ هـ، وبينما كان مولد بايزيد عام ٨٣١ هـ فهو بذلك الابن الأكبر للسلطان محمد الفاتح وله الحق في تسلم مقاليد السلطة في الدولة، وقد رفض السلطان بايزيد ذلك لأن والده أوصى له بالحكم من بعده، لكن جم لم يقتنع بذلك فعاد واقترح على أخيه بايزيد تقسيم الدولة العثمانية إلى قسمين: القسم الأوروبي لبايزيد والقسم الأسيوي له، ولكن بايزيد رفض أيضاً مبدأ التقسيم من أساسه لأن ذلك سوف يعمل على تفتيت الدولة التي سهر أسلافه على بنائها وتوحيدها، وأصر على أن تبقى الدولة موحدة تحت سلطته. ولم يكتف بايزيد بذلك بل انه أعد جيشاً كبيراً سار به إلى بروسه فهاجمها حتى فر منها جم إلى سلطان المماليك قايتباي في مصر، ومن هناك توجه منها إلى جزيرة ردوس، وحاول جم أن يتحالف مع ملوك أوروبا وأمرائها ليوجهوا حملة صليبية ضد أخيه بايزيد الثاني، ولكن محاولاته لتفتيت الدولة العثمانية باءت بالفشل، وبعد مدة توفي في نابولي يوم ١٨ جمادى الأولى عام ٩٠٠هـ الموافق ١٤ فبراير ١٤٩٥م[1]

---

(١) للمزيد من المعلومات حول الصراع بين بايزيد الثاني وأخيه جم انظر: بحث الأستاذ الدكتور محمد السيد دراج: «جم سلطان والدبلوماسية الدولية»، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ١٢، العدد الثامن، ١٩٥٩م ص ٢٠١ - ٢٤٢؛ وكذلك بحث الدكتور محمد زياد: نهاية السلاطين المماليك في مصر، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو ١٩٥١م، ص ٢٠١ - ٢١٠؛ ومحمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، ص ١٧٩ - ١٨٧؛ ويوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، ص ٦٣ - ٦٦. وانظر أيضاً:

Thusane: L Djem - Sultan (1459 - 1495), Paris: 1890.

فخلص الحكم للسلطان بايزيد الثاني.

وبالرغم من منافسة جم لأخيه بايزيد على السلطة إلا أن بايزيد استمر في الفتوحات وضم مناطق جديدة للدولة العثمانية في آسيا الصغرى وأوروبا وخاصة في منطقة بحر الادرياتيك، كما أنه اهتم بسياسة التعمير والتنظيم والإصلاح في مختلف مناطق الدولة.

وفي ١٨ صفر ٩١٨هـ الموافق ٢٥ ابريل ١٥١٢م ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول (٩١٨ ـ ٩٢٦هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥١٩ م) وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربي للدولة العثمانية بصورة أوسع ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وتوليه ابنه سليم مكانه.

وقد ولد السلطان سليم عام ٨٧٢هـ في أماسية عندما كان والده والياً عليها، وبعد تولي والده السلطة في الدولة العثمانية عام ٨٨٦هـ عينه والياً على طرابزون، وقد عاصر سليم فترة النزاع بين والده وبين السلطان المملوكي قايتباي بسبب إيواء الأخير لجم، كما أنه شاهد الهزائم التي كانت تتكبدها الأساطيل المملوكية على يد الأساطيل البرتغالية التي تطمع في تدمير العالم الإسلامي. وقد عمل على حماية الأماكن المقدسة من التسلط الصليبي الجديد، وذلك عندما آلت السلطة في الدولة العثمانية إليه، منذ الثامن عشر من شهر صفر سنة ٩١٨هـ الموافق ٢٥ ابريل ١٥١٢م. . ففي عهده توقفت الفتوحات العثمانية الإسلامية الكبرى في أوروبا، ليس بسبب التشبع، كما تتناقله بعض المصادر غير المدركة للواقع، وإنما من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من جانب الإسبان في البحر المتوسط والبرتغاليون في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر، الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي، ويفرضون عليه حصاراً اقتصادياً حتى يسهل عليهم ابتلاعه.

ومما يؤسف له أنه في نفس الوقت الذي كان فيه التحرك الصليبي الجديد يسير نحو تحقيق أهدافه العدوانية ضد الأمة الإسلامية في المشرق العربي، كان هنالك تحرك آخر يزامنه ويلازمه قادم من بلاد فارس نحو البلاد العربية، وذلك من أجل فرض المذهب الشيعي على الشعوب السنية في تلك المناطق.

ولذلك هب السلطان سليم الأول منذ توليه السلطة في الدولة العثمانية فجمع قواته، وتوجه بها إلى البلاد العربية، فكان أول عمل قام به هو أنه لقن إسماعيل الصفوي زعيم الدولة الصفوية درساً قاسياً ورده على أعقابه مدحوراً مذموماً، ثم اتجه بعد ذلك إلى ضم البلاد العربية لدولته. فقام بضم[1] بلاد الشام بعد معركة مرج دابق عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ثم اتجه إلى مصر وتم له ضمها بعد معركة الريدانية في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، كما ضم في نفس العام الحجاز للدولة العثمانية، وعمل بعد ذلك على ضم مناطق جديدة في العالم العربي، وقد تحقق على يده هزيمة الأساطيل البرتغالية، وإبعاد خطرهم عن العالم الإسلامي. وفي عهده دخلت السياسة العثمانية دوراً جديداً، وذلك بدخول البلاد العربية ضمن نطاق هذه الدولة وما ترتب على ذلك من تنظيمات وواجبات تجاه السلطان العثماني وحكومته مما يحتاج إلى دراسة خاصة.

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.

---

(١) يطلق البعض من المؤرخين كلمة الفتح العثماني للبلاد العربية، ويخلطون بين هذه الحروب وبين الفتوحات العثمانية في آسيا الصغرى وشرق أوروبا في المناطق غير الإسلامية، والتي توجت بفتح القسطنطينية، ومن الأفضل أن نطلق على حروب الدولة العثمانية في البلاد العربية عبارة ضم البلاد العربية للدولة العثمانية، لأن كلمة فتح مصطلح تاريخي له مفهومه الخاص في التاريخ الإسلامي.

قائمة ثبت المصادر والمراجع

ابن الأثير : علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم.
الكامل في التاريخ.
الأجزاء ٩ ـ ١١.
القاهرة.

ابن أياس : محمد.
بدائع الزهور في وقائع الدهور.
٣ أجزاء. الطبعة الأولى.
بولاق. القاهرة ١٣١١هـ.

ابن اياس : محمد.
بدائع الزهور في وقائع الدهور.
تحقيق محمد مصطفى.
القاهرة: ١٩٦٠م.

ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف.
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ١٢ جزء.
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
القاهرة. ب.ت

ابن العيري : غريغوريوس الملطي.
تاريخ مختصر الدول.
بيروت: ١٩٥٨م.

ابن كثير : اسماعيل بن عمر.
البداية والنهاية ـ ١٤ جزء.
بيروت. مكتبة المعارف.
١٩٧٠م.

ابن النظام : محمد بن محمد بن عبدالله الحسيني.
العراضة في الحكاية السلجوقية.
ترجمة وتحقيق عبد النعيم محمد حسنين وحسين أمين.
بغداد. جامعة بغداد.
١٩٧٩م.

أبو خليل : شوقي.
نهاوند.
الطبعة الثالثة. دمشق. دار الفكر.
١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل.
المختصر في تاريخ البشر.
القاهرة: ١٣٢٥هـ.

آصاف : يوسف.
تاريخ سلاطين آل عثمان.
تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي.
الطبعة الثالثة. دمشق.
دار البصائر: ١٤٠٥هـ.

الأصفهاني : محمد.
تاريخ دولة آل سلجوق.
بيروت. دار الآفاق الجديدة.
ب.ت.

الأقسكي : علي همت بركي.
العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني، فاتح القسطنطينية وحياته العدلية.
تعريب محمد حسان بن عبد العزيز.
القاهرة. مطبعة السعادة.
١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

أكرم : عبد المؤمن السيد.
أضواء على تاريخ توران (تركستان).
الطبعة الأولى. مكة المكرمة.
مطابع رابطة العالم الإسلامي: ١٣٩٥هـ.

أمين : حسين.
تاريخ العراق في العصر السلجوقي.
بغداد. مطبعة الإرشاد: ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

أنيس : محمد.
الدولة العثمانية والشرق العربي.
القاهرة. مكتبة الأنجلو المصرية.
ب.ت.

أوزون : إسماعيل حقي:
امراء مكة في العهد العثماني.
ترجمة: خليل علي مراد.

الطبعة الأولى. البصرة.
منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة
١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

بارتولد : ف.
تاريخ الترك في آسيا الوسطى.
ترجمة أحمد السعيد سليمان.
القاهرة. مطبعة الأنجلو المصرية.
١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

بروكلمان : كارل.
تاريخ الشعوب الإسلامية.
ترجمة نبيه أميه ومنير البعلبكي.
الطبعة الرابعة. بيروت.
دار العلم للملايين. ١٩٦٥م.

البلاذري : أحمد بن يحيى.
فتوح البلدان.

البنداري : الفتح بن علي بن محمد
تاريخ دولة آل سلجوق.
(زبدة النصرة ونخبة العصرة)
ليدن: ١٨٨٩م.

بينز : نورمان.
الامبراطورية البيزنطية.
ترجمة حسين مؤنس وآخرون..
القاهرة: ١٩٦٦م.

البيهقي : محمد بن حسين.

تاريخ البيهقي.
ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت.
القاهرة. مطبعة الأنجلو المصرية.
١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

حسن : حسن إبراهيم.
تاريخ الإسلام السياسي.

حسنين : عبد النعيم محمد.
سلاجقة إيران والعراق.
الطبعة الثانية. القاهرة.
مطبعة السعادة: ١٣٨٠هـ.

حسنين : عبد النعيم محمد.
دولة السلاجقة.
القاهرة. مكتبة الأنجلو المصرية: ١٩٧٥م.

الحسيني : صدر الدين علي.
زبدة التواريخ ـ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية.
تحقيق الدكتور محمد نور الدين.
الطبعة الأولى. بيروت.
دار اقرأ: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

حسونه : علي.
الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية.
الطبعة الأولى. دمشق.
المكتب الإسلامي: ١٤٠٠هـ.

الحصري : ساطع.
البلاد العربية والدولة العثمانية.

الطبعة الثانية. بيروت: ١٩٦٠م.

الحميلي : رشيد عبدالله.
إمارة الموصل في العصر السلجوقي.

الخضري : محمد.
الدولة العباسية.
الطبعة العاشرة. القاهرة، مطبعة الاستقامة: ب.ت.

دراج : أحمد السيد.
«جم سلطان والدبلوماسية».
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
المجلد الثامن. القاهرة: ١٩٥٩م.

الدسوقي : محمد كمال.
الدولة العثمانية والمسألة الشرقية.
القاهرة. دار الثقافة للطباعة والنشر: ١٩٧٦م.

الراوندي : محمد بن علي.
راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية.
ترجمة إبراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد.
الطبعة الأولى. القاهرة. ١٩٦٠م.

الرشيدي : سالم.
محمد الفاتح.
بيروت: ١٩٦٩م.

زيادة : محمد.
دراسات في التاريخ الإسلامي.
القاهرة: ١٩٦٨م.

زيادة : محمد.
«نهاية السلاطين المماليك في مصر».
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
المجلد الرابع. العدد الأول. القاهرة: مايو ١٩٥١م

الساداتي : أحمد.
تاريخ الدولة الإسلامية بآسيا وحضارتها.

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر.
تاريخ الخلفاء.

شاكر : محمود.
خراسان.
الطبعة الأولى. بيروت.
المكتب الإسلامي. ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

الشناوي : عبد العزيز محمد.
أوروبا في مطلع العصور الحديثة.
الطبعة الرابعة. القاهرة. مكتبة الأنجلو: ١٩٨٢م.

الشناوي : عبد العزيز محمد.
الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها.
٣ أجزاء. القاهرة. مكتبة الأنجلو: ١٩٨٠م.

الطبري : محمد بن جرير.
تاريخ الأمم والملوك ـ ١٢ جزء.
دمشق. دار الفكر: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

عطية : عزيز سوريال.
العلاقات بين الشرق والغرب.
ترجمة فيليب صابر يوسف.

القاهرة: ١٩٧٢م.

علي : سيد رضوان.
محمد الفاتح.
الطبعة الأولى. جـده. الدار السعودية للنشر والتوزيع
١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

فهمي : عبد السلام عبد العزيز.
السلطان محمد الفاتح.
الطبعة الأولى. دمشق.
دار القلم: ١٩٧٥م.

القرماني : أحمد.
تاريخ سلاطين آل عثمان.
تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي.
الطبعة الأولى. دمشق. دار البصائر: ١٤٠٥هـ.

الكرديزي : أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك.
زين الأخبار.
برلين. ب. ت.

كويرسلي : محمد فؤاد.
قيام الدولة العثمانية.
ترجمة من التركية وقدم له أحمد السعيد سليمان
القاهرة. دار الكتاب للطباعة والنشر. ب. ت.

لمحامي : محمد فريد بك.
تاريخ الدولة العلية العثمانية.
بيروت. دار الجيل
١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

المحامي : محمد فريد بك.
تاريخ الدولة العلية العثمانية.
تحقيق الدكتور إحسان حقي.
الطبعة الأولى. بيروت. دار النفائس: ١٤٠١هـ.

المستوفي : حمد الله.
تاريخ كزيده.
بومباي. نشر براون: ١٩١٠م.

المقدسي : زين الدين مرعي يوسف.
قلائد العقيان في فضائل آل عثمان.
مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى.

المقريزي : أحمد بن علي.
كتاب السلوك.
الطبعة الثانية. القاهرة: ١٣٧٦هـ/١٩٥٦

نوار : عبد العزيز.
الشعوب الإسلامية.
بيروت. دار النهضة العربية للطباعة والنشر: ١٩٧٣م.

المصادر والمراجع الأجنبية

Alderson, S. D.
The Structure of the Ottoman Dynasty.
Oxford: 1959.

Babinger, F.
Beitraege Zur Fruehgeschichte der Turkerherrschaft in Rumelien,
14 - 15 Jahrhundert, Muenchen: 1944.

Barkhausen, J.
Maenner und Maechte am Basporus, Abdul - Hamid und seine
Zeit.
Berlin: 1936.

The Cambridge History of Islam
(The Central Islamic Lands, Cambridge: 1970) Vol. 1.

The Cambridge Mediveal History Vol.4.

Fisher, S. N.
The Middle East. London: 1971.

Gibbons, E.
The Foundation of the Ottoman Empire.

Gibbons, E.
The Decline and Fall of Roman Empire. London: 1962.

Lane - Poole, S.
Turkey
Beirut, 1966 Reprint.

Marriatt, J. A. R.
The Eastern Question.

A Historical Study in European Diplomacy.
4th edit., Oxford: 1969.

Ostrogorsky, G.
History of the Byzantine State.
Oxford: 1956.

Runciman. S.
The Fail of Constantinople.
Cambridge: 1965.

Tamara, T. **Rice**
The Seljuke in Asia Minor.
New York: 1961.

Thusane, O. Djem - Sultan (1459 - 1495).
Paris: 1892.

Vasiliev, A. A.
History of the Byzantine Empire.
Madison Wise: 1952.

Williams. G.
Turkey.
London: 1967.

Wittek, Paul
The Rice of The Ottoman Empire,
London: 1938.

فهرس الموضوعات

آثار المؤلف

١ ـ محمد طاهر الكردي الخطاط ـ حياته وآثاره.
٢ ـ الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما.
٣ ـ التعليم الحكومي المنظم في عهد الملك عبد العزيز ـ نشأته وتطوره
٤ ـ المكتبات الخاصة في مكة المكرمة.
٥ ـ عصر الإمام عبد العزيز محمد آل سعود (قيد الطبع).

